حقنة الذكريات السعيدة

حقنة الذكريات السعيدة

قصص

معتز هاني

تصميم الغلاف: محمود عبد الناصر

تدقيق لغوي : محمود ربيع

رقم الإيداع: 2022/27888

I.S.B.N:978- 977-6854-87-1

الطبعة الأولى2023م



الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

المدير التنفيذي : ثائر عزت

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

معتز هاني

حقنة الذكريات السعيدة

قصص



هل حقًا تبتسم؟

لم يتخيل عم إدريس أن يكون رئيس مجلس إدارة النادي بكل تلك القسوة والجبروت، ألم يكفِه سيل الإهانات التي يوجهها يوميًّا لكل العاملين أصحاب المرتبات الضعيفة؟! والذين لا يستطيعون أن يواجهوه بكل أفعاله المتوحشة تجاههم!

ما ذنب تلك القطة المسكينة وأولادها الصغار؟ سأل نفسَه في حسرة أثناء موجة من الغضب كالعادة موجّهة من الأستاذ رفعت رئيس مجلس الإدارة:

– يا إدريس، قولتلَك ألف مرة القطط دي تحطّلها السم.. الأعضاء بيشتكُوا منهم.

كان عم إدريس دائمَ الرعاية لهذه القطة البريئة وصغارها.. يتقاسم معهم الطعام رغم أنه يجد قوت يومِه بصعوبة، ولكن طيبة القلب وطهارته ليس لها علاقة بالفقر، فقر القلوب هو الكارثة وليس فقر الجيوب.

لم يتخيل إدريس أن يشتكي أعضاء النادي من مجموعة قطط لا حول لهم ولا قوة، أيُّ قلوب تلك التي تأمُر بوضع السم وتقتل حيوانات بريئة؟ أي جنون هذا وأيّة وحشية؟

ذهب في تلك الليلة إلى القطط، وكان ينظر إليهم بحسرة ويضع لهم بعض الطعام وكأنها وجبتهم الأخيرة قبل حكم الإعدام، هدّده رفعَت

بالطرد ما لم يقتل تلك القطط، حتى ولو كان هناك حل آخر بطردها خارجًا، ولكن أصَرّ رفعت بقوة على قتلهم؛ لأن القطط دائمًا ما تعود مرة أخرى للنادي، وخصوصًا غرفة عم إدريس التي تجِدُ بها العطف والحب والطعام.

كان إدريس عامل النظافة ودائًما ما تمنى أن يكون هناك منظفات لأنفس الناس مثل المطهرات التي يستخدُمها لتطهير النادي، ماذا لو كان هناك مساحيق أرواح بدلًا من مساحيق الغسيل أو مطهّرات الأرض؟!

ظن أن الوقت سيمر وينسَى الأستاذ رفعت ما طلبه في ساعة الغضب اليومية المعتادة و إفراغ جَمّ غضبه على عامل ضعيف الحال، ولكن لم يحدث أبدًا، بل جاء إليه بزجاجة وقال له في سخرية:

- الإزازة دي تحطّ نصها للقطط أصحابك بدل شوية الأكل واللبن اللي بيخلِّيهم مش راضيين يمشوا من هنا، فاهم؟ لو ده ما حصَلش اعتبِر نفسك برّه من بُكرَة.

ظن إدريس أن القطط تفهم ما يحدث، كان يعود إليهم يوميًّا ويجد القطة الأم مهمومة لهمه، حتى وهو يضع الطعام لهم كان حزينًا وليس كعادته وهو يدندن ويربُتُ علي جسدها الناعم.

كان يقلّد أصوات القطة ويضحك، ويجد القطط تنظر له باستغراب واضح، ولكنهم يحبونه ويجدونه الأب الحنون بالنسبة لهم، وجدوا فيه كل ما افتقدوه في وحشية العالم خارج هذه الغرفة.

وجد وجهَ القطة الكبيرة حزينًا هو الآخر وكأنها تترجم مشاعره وتفهم كل ما يدور من مؤامرة على حياة صغارها من رفعت وأمثاله.

كان يعرف أن الذنب ليس ذنبه، وأن مصيره أصبح على المحكّ وأن حياته أمام حياتهم، يا لها من معادلة صعبة.. إما أن يرحم أو لا يَرْحَمه أحد!

في صباح يوم التنفيذ أخذ الزجاجة، ووعد الأستاذ رفعت بأن ينتهي تمامًا من القطط بحلول المساء.

ذهب إليه بفنجان القهوة المعتاد «بُن غامق سكر زيادة»، وقال له:

– النهاردة يا رفعت باشا كل شيء هيكون بخير، والنادي هيِنْضَف ومش هَتقْلَق تاني إن شاء الله.

– ماشي يا إدريس.. في الانتظار، مش عارف قطط إيه وقرف إيه اللي انت كنت مهتم بيهم دول! الأوضة بتاعتك هنا للشغل مش بيتك هو عشان تربّيلي قطط.

في الواقع لم يكن إدريس هو من قام بتربية القطط؛ فهو يعلم أن هذا ليس مسموحًا، ولكنها كانت مغالطة من رفعت، وهو يعلم جيّدًا أن القطط كانت هنا من فترة طويلة، ولكنها ارتاحت لإدريس بدلًا من الركلات والعنف الموجود تجاههم من أعضاء النادي وأطفالهم ومطاردتهم الدائمة.

نعم تشعر الحيوانات بطيبة القلوب، وتميز الطيب من الخبيث، وتميّز القلب الحنون من القلب الحجَرِيّ، كأن لها رادارًا خاصًّا ترصد به البشر وكل الأخطار المحيطة بها، وكل مكان مبني بالمحبة تجده بيتًا وملاذًا لصغارها.

جاءت إحدى السيدات إليه قبل التنفيذ، وقالت له:

– أخيرًا النادي هيِنضَف.. بلاش قرف بقى.

كانت مدام رشا زوجة الأستاذ رفعت والتي كانت مثله تمامًا، ليس في قلبها مثقال ذرة من رحمة تجاه هذه الأرواح الصغيرة المسكينة.. أرواح لم تؤذِ أحدًا قطّ، ولكنها تتعرض للعنات بعض البشر مَن ضربَت قلوبهم صاعقةُ الجبروت؛ فتكبروا.

وجاء وقت التنفيذ، وكان عم إدريس يبكي ويبكي قلبه أيضًا بحرقة، وينزف من الداخل على ما هو مقبل عليه بعد لحظات.

كان ينظر إلى الزجاجة ويرى السائل القاتل ويسأل نفسه «ماذا حدث للناس؟ وكيف تغيّروا إلى هذه الدرجة؟ ألا يؤذيهم هذا؟ هل الشعور بالذنب هو برمجَةٌ خاصة ببعض الناس فقط دون غيرهم؟"

ذهب إلى رفعت مرة أخرى لتقديم القهوة المسائية «بُن فاتح" هذه المرة كما يحبها رفعت تمامًا.

قال له في حماس:

- يلا همّتك يا إدريس، عايزين 4 جثث النهاردة.. وترمِيهم برّه عشان الرِّيحة.

- ما تقلقش يا باشا دي أمانة، وبقولّك النادي هيِنضَف.

بعد مرور شهر في قرية صغيرة بالصعيد كان عم إدريس يجلس في الشتاء البارد بجوار النار المشتعلة؛ ليتجنب هذا الصقيع، كان المكان مُقفِرًا وموحِشًا وشبه مهجور.

قام لتحضير بعض الطعام ووضع زجاجة صغيرة وبها القليل من اللبن وجاءت القطط لتشرب!

تذكّرَ يومه الأخير بالنادي، وكيف تغيّرَت حياته وكيف أصبح مطاردًا من الشرطة ومن أصحاب النفوذ أصدقاء رفعت المتوحش.

كان يوم إدريس الأخير في النادي مختلفًا.. بكى بشدة كما لم يبكِ من قبل قبل تجهيز السم، ولكنه كان اتخذ قرارًا بالفعل؛ وهو وضع السم في فنجان القهوة المسائي لرفعت وليس للقطط المسكينة.

كما وعد رفعت وقال له:

- النادي هينِضَف.

كان يعني كل كلمة قالها بالفعل، كان يعرف جيّدًا أنه سينفذ وعده وأنه سيحافظ على هذه الأرواح البريئة التي لم تقْتَرف ذنبًا بمجيئها للحياة وطلبها للرعاية والعاطفة والرحمة.

أخذ الزجاجة في هذا اليوم وهو في حالة هيسترية ورجَّها وهو يمسح دموعه، ووضع جزءًا منها في فنجان القهوة، ثمّ أوهَمَ رفعت وزوجته أن القطط ستموتُ بعد قليل.

خرج مسرعًا لغرفته البسيطة في النادي، وجهز متعلقاته البسيطة وكل ما يملكه في الحياة وهرب مسرعًا مع القطط، عرف بعدها وبعد رحيله لقرية نائية في الصعيد عن طريق أحد أصدقائه أن الكُلّ يطلبه حيًّا أو ميّتًا، عرف أن رفعت صرخ وتألم قبل موته من هذا السمّ الضارب العنيف.

الكل يبحث عن إدريس القاتل، ولكن إدريس كان يبحث عن إدريس الإنسان، كان يرى في قرارِه رحمةً، وفي بعض الموت حياة.

لم يقتل رفعت فقط بسبب القطط، ولكن لِكَمّ الإهانات العنصرية التي وجّهها لأصدقائه العُمّال على مدار فترة عمله في النادي، كان يتهمهم دائمًا بالجهل ويقول:

- فلاحين رعاع.. هتفهموا إيه بس؟!

كان يرى أنه انتقم أخيرًا وحصل على حق الجميع، وليس فقط القطط الصغيرة التي كانت تشعر باقتراب نهايتها وحزن إدريس.

ظل هاربًا فارًّا من العدالة، وتوعد أصدقاء رفعت بالانتقام منه، ولكنه فضّلَ الفرار من النادي والفرار من الظلم بدلًا من الفرار من نفسه، فكر أنه لن يغفر لنفسه بقتله للقطط، ولكنه سيغفر لنفسه قتلَ رفعت!

كل شيء يتغير في الحياة في لحظة واحدة، سواء بضربة حظ أو ضرْبَةِ قدر، ربما لا نعرف أبدًا متى تحين هذه اللحظة؟ ولكنها مُقدَّرةٌ في حياة كل البشر، والكل في انتظارها!

ولكن الغريب في ما يرويه إدريس لصديقه الذي ساعده على الهرب.. أنه أقسمَ أن الأم فعلتها.. هذه القطة المسكينة ابتسمَت.

بعد أن جهز كل شيء وكان يهم بالهروب من النادي ووضع السم لرفعت ليشربه رأى وجه القطة كما لم يرَهُ طوال عمره، أقسم أنها ابتسمت وكأنها فهمت كل ما حدث! وكأنها عرفَت أنه لن يفعلها ولن يقتل الصغار أبدًا.. عرفَت أن قلبها كان على حق عندما اختارت أن تكون تحت رعاية إدريس وعطفِه.

نعم لم يصدقه أحد، ولكنه لن ينسى أبدًا اللحظة التي ابتسمت فيها القطة ونظرت إليه وإلى صغارها، حتى أنه ابتسم وخاف في نفس الوقت، ولكنه تأكّدَ في تلك اللحظة أنها الإشارة وأنه على حق، قالها في إصرار «اللي عملتُه هو الصح.. قلب رفعت كان لازم يدوب.. ولو بالسم!"

سرّ الزجاجة الملونة

حين لا تعرف إجابة ثلاثة أسئلة تبدأ بكيف؟ و أين؟ ولماذا؟ فلا بُدّ أن تعرف أنك في موقف لا تُحسَد عليه!

لم أعرف أين أنا وكيف أتيت على هذه الجزيرة؟! لم أجد حولي إلا الوحشة وضيقًا يخنقني رغم البراح، هل غرقَت سفينةٌ كانت تقِلْني؟ كيف أتيتُ إلى هذا المكان الذي لا أسمع فيه إلا الأصوات المرعبة وكأنها أصوات وحوش وليست حيو انات عادية؟!

حين يصبح الخوف وطنًا تصبح القوة والأمنيات لاجئَين على الحدود، لا أستطيع أن أتمالك نفسي ولا أن أستنجد بمواطن قوتي.

تذكرت الأفلام القديمة، حيث يكون البطل فيها على جزيرة أو بعد سقوطِ طائرة في صحراء، وتذكّرتُ أول خطوة يقومُ بها.. محاولة الاستغاثة أو محاولة بناء مكان يأويه من أغصان الشجر والبحث عن الطعام.

حاولتُ أن أفعل كل هذه الخطوات بأي ترتيب كان؛ فلا جدوى من ترتيب الأولويات؛ فكل شيء هو أساسيّ، وكل خطوة هي أولويّة قصوى في هذه الظروف.

وجدتُ زجاجة قديمة ملونة على أرض هذه الجزيرة الغريبة، لم أعرف كيف وصلت هذه الزجاجة إلى هنا؟ ولكني استخدمتها لمحاولة التواصل مع المجهول، ربما يراها أحد تسير مع الأمواج ويجد فيها رسالتي وينقذني من هلاكٍ محتُوم.

لم أفكر سوى في زوجتي العزيزة.. ومن العجيب أن الزجاجة بها ورقة، ولكني لم أجد أي قلم بالطبع في هذا المكان، كانت ورقة بيضاء داخل زجاجة ملونة، هذا سر آخر من أسرارِ هذا المكان الملعون.

من الذي ترك هذه الزجاجة لي؟ أم هي مجرد صدفة عبثية؟

لم أجد وسيلة سوى بالكتابة بدمائي.. كتبت فقط « حبيبتي.. أنقذيني»!

في هذه الظروف ربما ينعتُنِي البعض بالجنون؛ لأني أستنجد بزوجتي وأشترط من ينجدني بدلًا من أكتب كلمة واحدة «ساعدوني»، ولكن لم أفهم كيف خطرَت هذه الفكرة الغريبة على بالي، كما لم أفهم كيف أتيت إلى هنا! أنا محاصر بين علامات الاستفهام وتكاد تخنقني وتعتصِرُ ضلوعي.

ألقيتُ الزجاجة في وسط الماء المحيط بالجزيرة من كل مكان، تركتُها تسير بين الأمواج لعلها تصل لزوجتي العزيزة، أو أي شخص ينقذني، بدأتُ أفكّر أن هناك شيئًا أجبرني أن أكتب هذه الجملة «حبيبتي.. أنقذيني»، عقلي لم يفكر سوى في هذه الجملة تحديدًا، ولا بُدّ أن أكتشف السر الذي جعلني أنفّذ هذه الفكرة العجيبة.

جلستُ أنتظر و أنتظر، وفي غياهب الظلمات وصوت الموج العالي المرعب وجدتُ الزجاجة تعودُ إليّ مرة أخرى.. نفس الزجاجة الملونة وبها نفس الورقة، ولكن كأن دمائي ممسوحة ومرسوم بدلًا منها علامة استفهام كبيرة بطول الورقة.

أي جنون هذا؟ مَن أرسل لي هذه الورقة؟ لماذا لا ينجدُني؟ هل هي زوجتي مَن أرسلها؟

أسئلة كثيرة تعصف برأسي، ولكن بلا إجابة شافية تريح أوجاع القلب المنفي في هذا المكان.

تعلّمتُ صيد السمك، لا بُدّ أن أتعلم الأساسيات لكي أعيش هذه الأيام.. وربما السنوات على هذه الجزيرة! لا أعرف مصيري، ولكن على الأقل كان لا بُدّ أن أتعلم كيف أصطاد وكيف أتعايش مع كل الظروف الصعبة.

أرسلتُ رسالة مرة أخرى، استخدمتُ نفس الورقة وكتبت هذه المرة «ساعدوني».

جلستُ مرة أخرى في انتظار الرد، وأتى المساء حاملًا معه الأخبار الجديد،ة والزجاجة مرة أخرى تعود مكتوب فيها كلمة واحدة «لا»!

مَن الذي يعبث بي؟ مَن الذي يفعل كل هذا؟ فكرتُ في أن أكونَ تحت تجربة لعالم مجنون أو شيء ما، أو كيان يسيطر عليّ، ربما كثرة قراءة الروايات ومشاهدة الأفلام أثّرَت على تفكيري.

كيف لشخص أن يعاند شخصًا وحيدًا يموت على جزيرة ويكتب له «لا»؟ لماذا لا يريد مساعدتي؟ لماذا يشارك في قتلي على سطح هذا المكان؟

بدأتُ أتذكر زوجتي وأشتاق لها، بدأَت كل معالم الوحدة تظهر على وجهي الحزين.. بدأ شعر ذقني يزدادُ كثافة، وبدأ جلدي يتغير لونه من البرد القارص، هل سأخرج يومًا ما من هذا المكان؟ هذا كل ما فكرتُ فيه.

وجاءت المرة الثالثة، وقلت هذه المرة سأجد الخلاص، زودتُ جرعة الدماء على الورقة مستغيثًا، وكتبت فيها «أرجوك ساعدني.. سأموت هنا".

لعلّي أستعطف من يجد الورقة وأحاول أن ألين قلبه القاسي ولو قليلً،. كيف لا يتحرك أي شخص في مثل هذه الظروف لنجدة من يموت وحيدًا منفيًّا مثلي؟

فكرتُ مرة أخرى في زوجتي، لماذا ليسَت معي الآن؟ كنا لا نفارق بعضنا أبدًا، حتى وإن كنتُ قد سقطتُ من طائرة أو سفينة فمن المؤكد أنها كانت معي.. هي لا تفاقني في أي سفر كان.

كان الشيء المرعب هو الظل، لم تخِفْني أصوات الأشباح وأسواط الوحدة على ظهري مثلما أخافني الظل أو الشبح!

في المرة الأخيرة التي أرسلتُ فيها الرسالة كنت أنتظر الرد، كانت عيني نصف مفتوحة ونصف مغلقة، أقاوم النوم بيأس ونصف عزيمة.

وجدتُ من يضع الزجاجة حولي وبها الرد.. أشبه بظل رجل.. صورة مهزوزة.. يدي مقيّدة بطوق ما على صخرة، وأشعر بتيّار غريب دافئ يسري في جسدي، وهذا الظل يضع الرسالة ويهرب سريعًا.

بعد أن أفقت من نومي وضعفِي وجدتُ الرسالة مرة أخرى مكتوب فيها: «لا لن أساعدك.. لن تخرُجَ من الجزيرة».

هذا الظل الغريب المهزوز وكأنني أعرفه، و أقسمُ أنّني في تلك الليلة كأنني رأيتُ زوجتي من بعيد على متن قاربٍ صغير، يعود الظل إليها ثم يُبحرُوا سويًّا بعيدًا.

هذا اللغز الغامض سيقتلني أكثر من الوحدة، نبضي الآن كحبات لؤلؤ سقطَت من عقد وفقدَت بوصلتها واتجاهها، تفرقوا جميعًا في أرجاء الجزيرة، كل نبضة يقتلها الوحدة ويصفَعُها عدم اليقين!

الروتين اليومي مرة أخرى.. أصطاد لكي أُطعِم نفسي و أنتظر أن أكشف سر هذا الظل، هذا الظل لشخص أعرفه، أو ربما أعرفه ولكني لا أتذكّرُه!

في هذه المرة نلتُ قسطًا و افرًا من النوم كي أكون مستعدًا حين يأتي وأستطيع أن أتبيّن ملامحه، و أتأكّد مِن إن كانت زوجتي حقًّا على القارب.

لم أُرسِل رسالة أخرى لعدة أيام.. لا جدوى من الرسائل؛ فكلّ ردٍّ يأتيني لا يفيد ولا يريحني أبدًا، بل أتأكد أنّني في خضَمّ مؤامرةٍ ما.

أتى هذه المرة مسرعًا كالعادة يحيط بي من كل اتجاه.. ظلٌّ سريعٌ جدًّا لا أستطيع أن أتبينه، وبمجرد ظهوره يسرِي في صدري هذا التيار الغريب؛ فأنام ثم يختفي.

شهور وسنوات على هذه الجزيرة، بدأتُ أفقد عقلي وينحَلُ جسدي بشكل لم أعهَدْه من قبل.

كل مساء كنت أجد نفسي مقيّدًا بشيء ما يشبه الطوق أو الحبل، وأشعر بالتيار الغريب الذي يقوم بتخدِير جسدي المتْعَب والمُنهَك.

حتى حدّثتُه أخيرًا في أحد الأيام.. ها هو الظل يحدثني وثبتَ قليلًا أمامي، قلت له:

– انت مين؟! إيه اللي جابني هنا؟! و إيه الجزيرة دي؟

رد ساخرًا مني:

– جزيرة؟! جزيرة إيه؟

– مش عايز تقولّي انت مين ليه؟ أنا حاسِس إني عارفك، بس مش فاكر بالظبط، عقلي مشوش بشكل غريب، انت اللي بتربطني بالشكل ده؟!

– أنا مش مُطالَب أقولّك حاجة.. اهدَى كده وحاول تتأقلم.

– أتأقلِم مع إيه؟ إني هَمُوت؟ انت هَتقتِلني؟!

– أنا مش هقتِلَك ولا حاجة، بس حاول تتأقلم على المكان، أو الجزيرة زي ما بتقول.

– يعني إيه زي ما بقول؟! والسمك ده إيه؟! والإزازة الملونة دي إيه؟! كل اللي انت شايفُه حواليك ده مش جزيرة؟ انت عايز تجنني؟!

ضحك بصوت عالٍ يهزّ أرجاء المكان، كأنه إله هذه الجزيرة! صوت ضحكتِه يزلزل كيانها ويُعيد رسم تفاصيل المكان.

شعرتُ بخوف أكثر، تأكّدتُ في هذه اللحظة حينما نظر بعيدًا أن زوجتي تقف هناك، بالفعل تقف على القارب وكأنها تنتظره، لماذا يذهب إليها؟ ولماذا لا تنقذني؟!

سألتُه في خوف عارِم:

– هي دي سلمى؟ هي دي اللي هناك على المركب؟

قال وهو يبتسم:

- أيوَة دي مدام سلمى.. مراتك.

- طيب هي ليه مش بتنقذني؟! أنا عايز أخرج من هنا.

صحتُ بصوت أخافَ طيور الجزيرة؛ فهربَت من المكان:

– سلمى، سلمى.. حبيبتي انقذِيني من المكان ده.

لم تستجِب لي، بل هربَت بالقارب قبل حتى أن يأتي إليها الظل كالعادة ويهربا سويًّا من أمامي، وكأنها لم ترَني أو لم تسمَعْني على الإطلاق، أهذه سلمى زوجتي؟! أم مجرد ظل آخر أو شبح زوجتي الحبيبة؟!

صرختُ في وجه الظل:

– أنا هنا بفعل فاعل.. فيه حاجة غلط، أنا هَعرَفَك ومش هِسيبَك أبدًا لآخر يوم في عمري.. انتَ قاتل.

– أنا مش قاتل.. أنا عاشق وبحب!

– بتحب؟! وإيه علاقة مشاعرك بسِجْني هنا؟ هَتقتِلني عشان بتحب؟!

– اختفاءَك شيء ضروري لسعادتي.

– ليه؟! أعرفَك منين أنا؟ من امتَى كنت عدوّك فهّمنِي؟ عملتلك إيه؟!

– ما عملتِليش حاجة، لكن وجودك ضد سعادتي وسعادة مراتك كمان.

– ما تجيبش سيرتها على لسانك يا جبان.

– هي هاتجِيلَك كمان شوية، هَتنزِل بنفسها الجزيرة الوهمية بتاعتك، اسألها هَتنقِذَك ولا لأ.

– طبعًا هتنقِذني، هي بس مش شايفاني لسبب غريب، لكن هتِسمَعني وهتخَرَّجني من هنا.

اقترب قارب صغير على متنه سلمى زوجتي، هبطَت بقدميها على الجزيرة لأول مرة بدلًا من أن تُرسِل الظل الغريب، اختفى هو وحضرت هي، كان لحضورها أثرٌ طاغٍ على المكان، وكأن الجزيرة تختفي وتُشرِق الشمس بعد أن كانت السماء غائمة لعدة شهور مضَت.

قلت لها في حزن ودهشة:

- سلمى.. إيه اللي بيحصل؟ مش بتردّي عليّا ليه؟ أنا أدهم حبيبك.. أنا جوزك، خرّجِيني من هنا أرجوكي.

- مش بإيدي يا أدهم، أنا مش هَعرَف أعمل حاجة صدقني.

- ليه يا سلمى؟ بسهولة نسِيتي حياتنا مع بعض؟ نسِيتي حبنا؟

- بص يا أدهم.. مكانَك هنا صدقني ده شيء مريح للجميع.

بدأتُ أفقد صوابي، لم أفهم كيف أصبحَت زوجتي وحب عمري بتلك القسوة والجبروت؟! لماذا تغيّرَت وما الذي حدث لمشاعرها تجاهي؟!

ألقيتُ بصخرة كانت بجواري في مرايا غريبة محيطة بي، تهشّمَت كل المرايا وسقط الزجاج، وفجأة شعرتُ بانقضَاض عدد من الوحوش ضخام القامة فوق صدري بعنف وسرعة عجيبة، وقيّدُوني مرة أخرى تحت مراقبة سلمى والظل الغريب.

***

في مكتب الدكتور أشرف السلحدار الطبيب النفسي ومدير المستشفى الجديد:

قالت أميمَة مساعدة المدير:

- لكن يا دكتور ده ملف غريب جدًا.. كان بيحس إنه على جزيرة فعلًا وشايِف كل تفاصيلها.

- بالظبط يا أميمة، كانت دي أقواله وشعوره، وكان الظلّ اللي بيقول عليه هو دكتور سامي اللي اتّفَق مع مراته سلمى ودبّرُوا مؤامرة كبيرة على أدهم المسكين، سلمى كانت بتخون أدهم مع الدكتور سامي، واتّفقُوا يدخّلوه المستشفى، وأخد كمان جلسات كهرباء كتير جدًّا، الفساد كان مستشرِي في المكان، لكن بعد التحقيقات عرفنا حالته بالظبط.

- وكانت الرسائل بترجعلُه دايمًا على الجزيرة يا دكتور، كان من جواه عارف إن زوجتُه مشتركة في المؤامرة.. عارف إنها مش هترُدّ عليه ومش هتخرّجُه.

- كان وهو بيحكيلي بيبكي بشكل رهيب وهو بيتخيل الجزيرة والوحوش اللي بيقول عليها -اللي كانوا عُمّال العنبر في المستشفى- بيهجموا عليه عشان ياخد الجلسات بأمر من دكتور سامي الملعون.

- أخيرًا تم فصله والتحقيقات جارية، لكن إيه مصير سلمى؟

- التحقيقات هَتكْشِف كل حاجة رغم محاولات إنكارها، هي اللي دبّرِت مع عشيقها كل حاجة.. هى الشر بعينه، نصَبُوا المؤامرة على الراجل الغلبان اللي ماكانش يتخيّل يحصل كل ده من مر اته، بعد ما كان مريض بالإجبار دلوقتي أصبح حالة حقيقية في عنبر 112 بسبب الصدمة اللي ماكانش يتخيّلها، وخيانة زوجته اللي حطته في المستشفى ودمّرِت حياته، انتكّس مرة تانية بعد ما كان اتحسّن وحكالي على كل حاجة.

داخل عنبر 112:

صوتُ المريض أدهم يصيح بقوة:

– سلمى حبيبتي أكيد هَترجعِي.. أكيد هتنقذِيني، أنا مستنّيكِي تخرّجِيني من الجزيرة، الوحوش والظل اختفوا، لكن انتي هترجَعِي وتخرّجِيني، أرجوكي يا سلمى.

هل فكرت يوما في الاستقالة؟

مللتُ العمل بهذه الشركة الغبية.. مللتُ الغرف المغلقة وأصوات الصيحات والصراخ الذي يأتي من كل غرفة، وكل أنواع العذاب الذي يذُوقُه العاملون يوميًّا في هذا المكان الروتيني الذي يمتص من شرا ييني السعادة.

اليوم أصبح إيماني أن الحياة كما ساقية الملاهي المعطلة؛ مَن في الأعلى يصرخون طلبًا للمساعدة، ومن في الأسفل يفرون هاربين.

الكل يصرخ ويئِنّ في هذه الشركة، والمدير لا يأبه لأحد، بل إنه يرفض الاستقالة لسبب أو لآخر، ولا أعلم ما الحكمة في هذه الفكرة! ولكن يقول إنها أوامر الإدارة العليا.

قال إميل سيوران «كلما عشنا أكثر اكتشفنا أنه لم يكن من المُجِدي أن نعيش"، لقد كان على حق فيما قال، لقد أصابني المرض والاكتئاب في هذا المكان، وكل مَن حولي يزيد من حالة اكتئابي بألمهم وحياتهم الحزينة.

منذ دخولي إلى الشركة في الصباح الباكر من كل يوم أجد الاستقبال المعتاد المتصنع من الأمن، و ابتسامتهم المزيّفة الحاقدة على مَن في الأدْوار العليا، وكأنه يتمنى أن نستقيل جميعًا وأجده يقول في خيالي: صباح الخير مستر عماد، فكرت في الاستقالة النهاردة ولا لسه؟

نعم فكرت في الاستقالة، بل أفكر بها في كل يوم تقريبًا، وفي كل ساعة وكل دقيقة.

الشركة مقسّمة إلى درجات، يزيد الصراخ تدريجيًّا كلما هبطت إلى الأسفل في غرف المرتبات الضعيفة والأعمال الثقيلة، لا يوجد أية عدالة هنا، بل فقط الحزن والظلم يخيّم ويظلّل الجدران.

أنا من قاطني الأدوار العُليا، ولكني مثل أصحاب المرتبات الضعيفة لا أستطيع أن أدفع ثمن علاجي لجلسات السرطان ومرض الاكتئاب، أريد الخروج الكريم والرحيم من هذه الشركة التي أهلكَتْني وطعنَت أيامي، حتى أصبح نزيفها كالشلال.

قررتُ اليوم أن أذهب إلى المدير وأصارحه برغبتي في الخروج.. خروج كريم وليس الذهاب إلى الشركة البغيضة الأخرى «الشعلة».

يقولون أنّ من يخرج من هنا ويقرر الاستقالة لا يعمل بعدها إلا في شركة «الشعلة» بتوصية من المدير، وكأنّه يضيق الخناق على من يستقيل ويجعله غير مُرحّب به في شركة «الرحيق».

حينما صارحتُ صديقي بقرار استقالتي قال لي في سخرية وهو يغنّي:

- الشعلة هاتتونّس بيك.. بتوَنّس بيك و انت معايا.

ضحك ضحكة هستيرية، ثم أكمل عمله فجأة وهو في حالة غضب، كل من حولي كما الروبوت، مشاعرهم يحكمها الآلات والشاشات إن كان تبقَّى لهم أي مشاعر من الأساس!

صعدت للطابق الأخير، و أثناء رحلتي صعودًا على قدمي «المصعد معطل كالعادة رغم مصاريف الصيانة الباهظة» سمعتُ من يئن ومن يفرح، سمعت أصوات الزغاريد وأصوات البكاء والنحيب، لكن كلّ منهم يبقى في مكانه دون حراك ودون أمل في الخروج من الطابق المحبوس فيه.

وصلتُ إلى القاعة الكبيرة في الدور الأخير، كما وصفوه لي، لن يظهر أبدًا.. يعطيني ظهره ويسأل فقط بصوت جهوري:

- عايز إيه يا عماد؟ خير؟ انت مش عارف إن الوصول هنا ليه عو اقب؟

- ليه يا فندم؟ أنا عايز حقي، أنا تعبت في الشركة دي وعايز أخرج خروج كريم وحضرتك توصّي بيا في شركة الرحيق مش الشعلة.. مش عايز أرُوح الشعلة زي اللي سمِعت عنهم.

- بس انت عارف إن ده قرار مش بإيدي.. فيه إدارة عُلْيا يا عماد.

- يا فندم مش من العدل إن....

قاطعني فجأة صارخًا:

- عدل؟! انت اللي هتقرّر إيه هو العدل؟ احنا اللي بنحُطّ القواعد للموظفين يا عماد، انت اتجنّنت؟ عدل إيه و انت شايف الشركة الكل بينهَش في لحم التاني.. كل موظف نِفسُه التاني يروح في داهية وياخد مكانه، كلمني عن النفسيات يا عماد وظلمكم لبعض ونهب الحقوق قبل ما تكلِّمني عن العدل.

- لكن أنا تعبت، مرض و اكتئاب ومصاريف، كفاية عليّا كده، أنا عايز أستَقِيل.

- استقِيل يا عماد، بس أنا مش هَمضِي على حاجة.

- يعني إيه يا فندم؟ لازم حضرتك تمضِي عشان أقدر أمشي.

-لا يا عماد، انت ممكن تخرج براحتك من باب الشركة.. هتِنزِل تحت لحد القبو تاخد الاستمارة وتمضِيها لنفسك.

- إيه النظام الغريب ده يا فندم؟ هَمضِي لنفسي؟! هو أنا المدير؟!

- انت المدير و انت المتحكّم في كل حاجة، أنا دوري بييجي بعد كده.. مش دلوقتي خالص.

- هو أنا ممكن أشوف وشّك يا فندم؟ هو انت ليه بتكلمني باحتقار كده؟ ليه مدِّيني ضهرك؟

- لأنك مش عايز تشوف وشي يا عماد! بلاش أحسن.

- طيب لو خرجت من هنا ليه مش من حقي أروح شركة «الرحيق»؟ ليه أتعب و أتبَهدِل هنا وفي الآخر ترميني في شركة أوسخ من دي.. شركة الشعلة.

- ده كمان مش بإيدي، لكن غالبا هَترُوح للشعلة.

- طيب ممكن تمضيلي حتى على خروج وطلب استقالة رحيمة؟

- انت صدقت يا عماد؟ فيه حاجة اسمها «استقالة رحيمة»؟ طيب رحيمة ليه و انت هترُوح الشعلة بعدها؟ دي مجرد مسميات مش أكتر، الموظفين همّا اللي سموها كده، لكن احنا مش مو افقين على الاسم ده.

- خلاص يا فندم أنا مش قادر، هَنزِل القبو وهاخد الورقة وأمضيها لنفسي.

- حتى لو هترُوح الشعلة؟

- حتى لو هروح الشعلة، ماعادِتش فارقة، أشوف وشك بخير.

قلت في سري: «وش إيه؟! ده أكيد مش هَشُوف وشه بخير أبدًا».

- بتقول حاجة يا عماد؟

-لا يافندم.. الوداع.

هبطتُ على الدرج مرة أخرى في أثناء رحلتي إلى القبو، وجدتُ أطفالًا تحبو وأطفالًا ترضع من صدر أمها في بعض طو ابق الشركة، وجدت مراهقين مع آبائهم منهم العاق ومنهم الحنون، وجدتُ بشرًا تلعب بالدولارات وآخرين يبحثون في أكياس قمامة الشركة.

أين العدل في هذا المكان؟! مسرحية كبيرة الكل يصفق لها ويضحك عليها رغم أنها كئيبة ودرامية.

وصلتُ أخيرًا إلى القبو، سأبحث الآن عن ورق الاستقالة..

وجدتُ ثلاثة أقلام غريبة في هذا المكان الموحش، قلمًا محشو بالرصاص بدلًا من الحبر، وقلمًا آخر يتدلَّى من حبل على السقف، وقلمًا مليئًا بمادة سامة وعليه رسمة جمجمة كبيرة.

اخترتُ القلم السّام وسرت في طريقي أبحث عن الورقة.

ورقة طويلة جدًّا لا أستطيع أن أقرأ كل بنودها، عقد لا منتهي ومؤكد أنه مُلِئ بالثغرات التي ليست في صالحي بالتأكيد، كما هو الحال في كل تفاصيل هذه الشركة الظالمة.

وقّعتُ على الورقة بالقلم المليء بالسم، وكتبتُ جملتي الأخيرة في مكان التوقيع:

«رغبتي الأخيرة قبل الخروج من هنا أن أذهب لشركة الرحيق، بعد كل هذا العذاب أنا لا أستحق الشعلة، أريد فقط العدالة يا أصحاب العدالة".

أظلمَت الدنيا من حولي فجأة، كأني أرى أمامي كل أحلامي في الترقية، وكل كوابيسي ومخاوفي في هذه الشركة، رأيتُ حياتي كفيلم قصير يُعرَض أمامي بكل تفاصيله.. حتى أدقّ التفاصيل التي لم أعد أتذكّرها.

ووجدتُ نفسي مرة أخرى أمام المدير، ولكن الآن رأيت وجهه، وقال لي:

- برافو عليك يا عماد، انت خدت القرار لكن ماقريِتْش العقد كفاية.

- يا فندم أنا مقرِيتش العقد أصلًا يوم دخولي الشركة.

-انت عارف انت دخلت الشركة ليه أصلًا يا عماد؟

- ولا فاكر حتى أن جيت هنا ازاي أصلًا! لكن أنا تقريبا مولود موظف هنا ومش بإرادتي.

- طيب أومّال فاكر ليه إنك هَترُوح «الرحيق" وإن الاستقالة بإرادتك؟

- أنا طمعان في الرحمة.

- واحنا طمعانين في الاختبار.

- اختبار إيه يا فندم؟! أنا دُوقت كل أنواع العذاب.. العذاب والمرض والظلم.

- بس خدت نصيبك أفراح برضه، ماكانش كل عَقدَك وكل شُغلَك عذاب يا عماد.

- بنسبة كام يعني؟ معظم الوقت ألَم، وفي النهاية توصّي عليّا في شركة ظالمة تانية وترميني في الشعلة بدل من شركة الرحيق اللي الموظفين بيتدلّعوا فيها؟ ليه كل ده؟! عملت إيه يعني؟!

- عمومًا يا عماد تحت توقيعَك أنا كمان هوقَّع دلوقتي.. ده دوري، وطلبك ده هيُنظَر فيه، مش أنا اللي هَبُصّ فيه، لكن كل شيء جايز.

كان وجه المدير شاحبًا وغير مرئي تقريبًا، وحركته سريعة وغريبة، وقام بالتوقيع على استقالتي وأرسلني إلى مكان غريب من بين شركة الشعلة والرحيق، وكتب على ورقة الاستقالة بخط عريض «لمن يهمه الأمر»!

ما زلتُ في نفس المكان في انتظار القرار، أرتاح قليلًا هنا وأتمنى الذهاب لشركة الرحيق، وأن يُنظَر في أمري بعين الرحمة.

هناك آخرون ينضمُّون لي في نفس المكان يوميًّا، ويحكون لي عن المدير غريب الأطوار، وأنهم لا يتذكّرون كيف وصلوا إلى الشركة في البداية، ولكن كانت بداية وعيهم وحياتهم فيها.

بل أن البعض أقسمَ أنه وجد غرفة بها «حبال سُرّية» مقطوعة في الشركة، وأصوات صراخ موظفين تحت السن.

البعض اختار القلم المحشوّ بالرصاصات، والبعض اختار قلم السّمّ، ولكن الكل قام بالتوقيع على الاستقالة.

وما زلتُ أتذكر وجه المدير الغريب الدامِي، نعم كما تتخيلونه.. أشبه بالموت وطعم الموت!

قضية طبيب الفلامنكو

أتذكّرُ ذلك اليوم حين وقفتُ أمام قبر «ريم»، ووضعتُ زهرةً صغيرة حمراء بلون فستان الفلامنكو الذي كانَت تعشقُه وتعشق كل ما يخص تلك الرقصة الإسبانية، بل تعشق كل ما هو إسبانيّ، حتى المسلسلات والأفلام الإسبانية.

ريم لم تكن ابنتي فحسب، بل كانت بمثابة أختي وكل عائلتي، كنتُ كاتمة أسرارها وملبّية طلباتها وأحلامها.

كنتُ أبكي أمام القبر وتجري الذكريات في عقلي كجدول ماء رقيق، ثم ضربة موج تكسر كل أشرعة التماسك وقوة الحيلة.

اخترتُ اللون الأحمر تحديدًا بلون الفستان لأقدم لها الوعد بالانتقام، ستأخُذِين حقك يا ريم ولو بعد حين، لن يُفلِت هذا الوغد مهما مرَّت الأيام والسنوات.

كانت حياتي سعيدة مع زوجي المهندس والمقاول وابنتي الوحيدة، كنتُ من عائلةٍ ثريّة، وكان جدّي أيضًا يملك شركة كبيرة للمقاولات، وترك لأبي ثم لي ثروة ضخمة.. كنت كما يطلق عليّ دائمًا من المحيطين بي «هانم بنت هانم».

كانت ريم زائدة الوزن، وكانت تشعر بالحزن من أجل ذلك، وكان البعض يتنمّر عليها بسبب الزيادة في الوزن، قرّرتُ في يوم ما أن تسير على نظام غذائي من موقع اليوتيوب، وما أكثر الأنظمة الغذائية التي لم

أصدّق معظمها، وكما يقول زوجي وأو افقه الرأي «أن الموضوع أصبح من أجل المال فقط».

قرّرَت ريم في يوم ما أن تصبح نباتية، قلت لها في تعجب:

- نباتية يا ريم؟ مش هتِقدَري يا حبيبتي، طيب واحدة واحدة وخلينا في نظام أسهل وهَنساعْدِك كلنا.

- ليه يا ماما شايفاني مش هَقدَر؟ ليه دايمًا الناس بتحسِّسْني إن ماعندِيش إرادة ولا حيلة؟!

- ما قولناش كده يا ريم، بس النظام ده صعب جدًّا وأنا خايفة عليكي، يعني مش هَتاكْلي لحوم بقية حياتك؟ هتِقدَرِي على كده؟

- هحاول، لأنا بحلم بجسم رشيق وبحلم بفستان الفلامنكو الأحمر، وبحْلَم أرقُص الرقصة دي و أتدرَّب عليها، أنا وَزنِي زايد جدًّا يا ماما.

- اتفقنا إن هَنِمشِي مع عمتك، وهي دكتورة تخسيس شاطرة.

- حاولت معاها أكتر من مرة وماعرِفتش أكمّل للأسف، الظاهر العيب فيّا فعلًا!

كانت تبكي كلما تذكّرَت فشلها في الرجيم وطرق التخسيس أكثر من مرة، وبعد فترة تحدّثَت معي مرة أخرى عن نظام آخر يسمى «الكيتو».

قرّرَت ريم أن تسير على طريقة الكيتو بعد أن تقوم أولًا بعملية تكميم المعدة على يد واحد من أشهر الأطباء، وهو دكتور «غزال».

«مع غزال.. حلم الرشاقة مش مُحال» هكذا يقول الشعار الخاص بالعيادة والإعلانات الكثيرة التي تغرق الشوارع والكباري في كل مكان بالقاهرة والمحافظات، حتى القنوات التليفزيونية لا تخلو أبدًا من كلام ومحاضرات الدكتور غزال ونِسَب نجاح عملياته باهظة الثّمن.

قرّرَت ريم أن تقوم بالعملية، وقامت بشراء فستان الفلامنكو كي ترتديه بعد العملية التي ضمِنَت نجاحها على يد الدكتورغزال.

قمتُ بسؤال الدكتورغزال في العيادة:

- العملية دي أمان يا دكتور؟

- اطّمني بنتِك في إيد أمينة، العمليّة عندنا تقريبًا نسبتها مية في المية.

- وبعد كده هَينزل وزنها وهَتِمشي على نظام غذائي؟

- طبعًا.. لازم تمشِي على النظام اللي هَكتِبُه، وكمان هتَاخُد المكمّلات من إنتاج شركتنا "مكمّلات غزال»، أكيد حضرتك سمِعتِي عنها.

ابتسم بثقةٍ وغرور فج حينما تكلّم عن مكملاته الغذائية التي تملأ الأسواق، والتي لا أثق في أي منها ولا في طريقته في الحديث عن نفسه، أينما تجد الغرورتجد أصدقائه «الجهل والفشل».

في يوم العملية قامت ابنتي باستلام الفستان صباحًا عن طريق طرد كبير، كان المقاس أصغر بكثيرٍ بسبب ما كانت تتوقّعُه من نزول كبير في الوزن، وأن ترتدي الفستان وترقص به رقصتها المفضلة التي كانت تشاهدها دائمًا عبرالشاشات.

ثم ذهبنا إلى العيادة وغرفة العمليات، وبدأت العملية.. كنت أنتظر أن أرى ريم تضحك من قلبِها وتعانق حِلمَها بالرشاقة وترقص مثل الفراشة.

لكن ما حدث كان كبيرًا.. كان موتًا.. كان كَربًا.. كان كالغارة في الحروب والجملة الشهيرة «طفّي النور.. غارة«!

كل يوم غارة ذكريات ومطر من الدموع على وجهي، بدأ بتساقُطِ الدمع الأسود الذائب في الكحل يوم العملية وفشَلِها، ثم أكملَته بقية

أيامي بدمعٍ شفاف دون كحل ولا مساحيق تجميل، فقط دموع تتحنَّى بذكريات أيامي مع ريم.

حينما واجهنا الطبيب أنكر الخطأ الطبي بالطبع، وقال في تكبر ووقاحة:

- يا فندم نسبِة العملية ونجاحها انتي عارفاها كويس، دكتورغزال ما بيغْلَطش.

- ما بتِغلَطش يا مجرم؟ قتَلت بنتي وبتقول ما بغلطش؟ انت ازّاي وقح كده؟

- لو سمحت يا فندم أنا مقدّر حزنِك كويس، لكن مش عايز أتعامِل معاكِي بطريقة تانية، خدُوها برّه لو سمحتم.

- كلب.. جباااان، هتِعرَف أنا هَعمِل فيك إيه.. هحكِي الحكاية في كل مكان وعلى السوشيال ميديا.

- سوشيال ميديا؟! هتِعرَفي يعني تغطّي على إعلانات العيادة؟

سخر مني وضحك ضحكة عالية.. ضحكة وجدتُها تتر اقص على جثة ريم الحبيبة وتشرب من دمائها.

عدتُ إلى المنزل ووضعتُ الفستان في غرفة ريم، بدأَت المشاكل تتصاعد مع زوجي، وبدأنا في إجراءات الانفصال؛ لأنه ظن أنني لن أتجاوز الأزمة وسأعيش دائمًا من أجل الانتقام لريم، وقد كان مُحقًّا في ذلك الاعتقاد.

منذ أن ضحكَ هذا الطبيب الوغد وسخر مني ومن موت ريم و أنا قررت أنه لا بُدّ أن «يرقص الفلامنكو»!

نعم هي فكرة مجنونة، ولكنه سيرقص بدلًا من ريم، ولن يتحدث بالكذب على قنوات تليفزيونية بعد الآن، هذا الدجال لا بُدّ أن يعود إلى جحور جهلِه ويُراقِص أشباح ضحاياه، وتلتفّ حول رقبته «كوبرا انتقامِي»!

جمعتُ كل ما أملك من حسابي البنكي.. نعم هي أموال طائلة، ليست خسارة في ريم، حياتي كلها فداءٌ لها، قررت الانتقام بطريقةٍ خططتُ لها جيّدًا وفكرت فيها أيامٍ وليال طويلة.

كان أبي له جانب مظلم قبل وفاته، وكان يتعامل مع مجموعة من البلطجية أو عصابة محترفة لجمع أمواله ممن يدِينُون له بالمال، لم يكن لصًّا.. ولكن كان يعرِف كيف يتعامل مع اللّصُوص.

قررتُ أن أستعين بهذا التشكيل العصابي المحترف وأعرِض عليهم الخطة، وأعرض عليهم كَمًّا هائلًا من الأموال من أجل تنفيذها.

ربما ستقودهم إلى السجن، ولكنهم سيقومون بها باحترافية، حتى لو ستكون هذه الأموال لأبنائهم بدلًا منه؛. فقد كانت ملايين الجنيهات.

كان الطبيب «غزال» على الهواء في إحدى القنوات.. كانت كما المعتاد قناة «بير سلّم» مثلما يُطلَق عليها، وفي الاستديو المجاور له فقرة عن الأكل ودعوة لأحد المطاعم.

وبدأت الخطة في هذا اليوم بأن يرتدي فريق البلطجية ممن استأجرتهم ملابس خاصة بالمطعم، ويدخلون بالطعام للغرفة المجاورة للطبيب، ثم يقومون باقتحام الاستديو و أقوم أنا بالاتصال.

بالطبع كان لنا معاونون من الداخل حصلوا على رشاوٍ هائلة أيضًا من أفراد الأمن وغرفة الكنترول وغيرهم، لقد وهبتُ كل ما أملك من أموال.. وهو كَمٌّ كبير جدًّا لو تعلمون.

كان الطبيب يتحدث عن عملية التكميم، وكم انتظرتُ هذه الحلقة لمواجهته على الهواء أمام ملايين المشاهدين الذين يصدّقون هذا اللص المحتال.

قال الطبيب في فقرته وهو يبتسم ابتسامته المزيفة السخيفة:

- معانا اتصال على الهوا.. اتفضّلِي يا مدام تهاني.

- أهلًا دكتورنا الغالي.. فاكرني؟

- لا والله، لكن الصوت مش غريب عليّا، مين معايا؟

- أنا متابعة وفيّة ليك، وكنت عايز أعرف منك أكتر عن عملية التكميم.

- حضرتك وزنِك كام؟

-لا أنا رشيقة والحمد لله، لكن بنتي كانت عايزة تعرف يا دكتور نسبة نجاح العملية.

- بنت حضرتك قاعدة معاكي دلوقتي؟

-لا يا دكتور هي بتسأل من القبر؟ عايزَة تعرف حضرتك قتَلْتَها ليه في العملية؟

- انتي بتقولي إيه يا ست انتي؟ انتي اتجنّنْتي؟ اقطعوا الخط.. دي أكيد مؤامرة من المنافسين.. ده حقد دفين، أنا عارِفكُم كويس.

بدأ يشعر بالخوف والهلع ولا يعرف ما ينتظره، اقتحم البلطجية الاستديو بالكامل ومعهم عدد من المسدسات ومكمّلات الطبيب الغذائية، وفستان رقصة الفلامنكو.

صرخ بصوت عالٍ وهو مرعوب تمامًا:

– إيه ده؟! انتم مين؟! ازاي دخلتم هنا؟ اقطعوا الهوا.. اقطعووووا الخط فورًا.

كنت ما زلتُ على الخطّ، وقلت على الهاتف:

- اهدَى بس يا دكتور غزال.. ريم عايزة تعرف بأيّ حق قتلتها وبتنكر خطأك وجريمتك؟ انت عارف إن مكمّلاتك الغذائية وشركتك دمّرت كبد ناس كتير تانية؟ أنا عملت عنك كل أبحاثي، أنا بقيت عايشة عشان انت ماتْشُوفْش يوم سعيد تاني.

- انتي أكيد مجنونة، انتي جايبة بلطجية؟ أنا هَسجِنِك.. أنا هدمّرِك.

- انت لسّه ما تعرفش يعني إيه تدمرني؟! أنا خلاص انتَهِيت من يوم وفاة ريم.. هتْدمَّر إيه تاني فيّا؟ هو أنا لسَّه فيّا حاجة تتدمر؟

- طيب اهدِي بس ونتفاهم.. عايزة تعويض؟ أكيد انتي عايزة فلوس صح؟

- مش كل حاجة بالفلوس يا خسيس يا قذر، أنا وهَبت كل فلوسي وعمري عشان تتحِرِم من كل حاجة وتكمّل حلم بنتي.

- و أنا هكمّل حلم بنتك ازاي؟ و إيه هو الحلم ده؟

- انت هتِلبِس الفستان اللي مع الرجالة اللي حواليك، وهتْقُوم حالًا ترقص رقصة الفلامنكو على الهوا.

- انتي بتقولي إيه يا ست انتي؟ اقطعوا الخط.. فين الأمن؟!

- ما تِتعِبْش نفسك على الفاضي يا دكتور.. كل شيء متخطّط ليه بإحكام كبير، اهدَى بس عشان الضغط، البِس يلّا الفستان زي الشاطر كده بدل ما الرجالة يستخدمُوا العنف.

قاموا بجعله يرتدي الفستان بالقوة.. فستان الفلامنكو، وبدأت الموسيقى الشهيرة للرقصة، وقام الدكتور بمحاولة الرقص تحت تهديد السلاح في مشهد أثار دهشة كل المشاهدين للبرنامج.

وبعد الرقصة حشوا فمّه بكُلّ مكملاته الغذائية و أقراصه المدمرة، ثم قاموا كما أوصيتهم تمامًا بقطع لسانه وفقءِ عينه.

أكملتُ المكالمة:

– أنا عارفة إنك مش شايف ولا عارف تتكلم دلوقتي، لكن سامع على الأقل.. أنا قررت ما أقتلَكش، أنا مش عايزاك تموت.. أنا عايزاك تعيش ميت ومذلول.

قاموا في النهاية بتمزيق فستان الفلامنكو، ووضع قطع من قماشه في فم الطبيب وتخييطها في اللثّة بجوار لسانه المقطوع.

قلت له:

– دلوقتي جواك جزء من ريم، حاجة كانت بتعشقها يا دكتور وبتحلم بيها و انت دمرت الحلم.. فستان الفلامنكو، شكرًا لرقصتك.. زي ما رقصت فوق جثث الناس وتكبّرت وتجبَّرت وكذِبْت كتير.

ثم أغلقتُ السماعة وجلست على سريري، وأعرفُ جيدًا أن الأمن سيصل لي في أي وقت، ولكني كنت مستعدة بحقيبتي بجوار السرير، لا يهم إن حصلتُ حتى على حكم المؤبد، المهم أن تبتسم ريم مرة أخرى في قبرها، وتكون الزهرة الحمراء على قبرها أكثر زهوًا وجمالًا.

وهذه هي حكايتي.. أحكيها لكم من سجن النساء، كانت قصتي مثار تعجب النساء من حولي، لم يتخيلْن أن ينتقم أحد بهذه الطريقة، لكنني أُمّ.. وحذاري من انتقام الأم إذا قتَلتُم أعزّما تملك.

علمتُ أن الطبيب ما زال حيًّا ولم يقم بالانتحار، ولكنه يعيش كما الميت تمامًا، قطعتُ لسانه عن طريق البلطجية كي لا يكذب على أي مريض مرة أخرى، ومزقت عينه كي لا ينظر إلى المرضى بالثقة المفرطة الخادعة.

تم القبض على عدد من الرجال الذين استأجرتهم أثناء الهروب من القناة وحصار الشرطة لهم، ولكن الأموال وصلَت إلى عائلتهم على الأقل لتأمين مستقبلهم حتى يخرجوا مرة أخرى.

وتمت مطاردتي قضائيًّا من قِبَل أسرة الطبيب النصاب المجرم، وكنت أتقبّل كل شيء؛ فأنا مفلسة تمامًا، وبِعتُ أيضًا كل ما أملك تمهيدًا للبقاء داخل السجن فترة طويلة، وكل ما يهمني هو طعم الانتصار ولذة الانتقام.

ما زلتُ أرى ريم في فناء السجن و أتخيلها حولي، وفي أرجاء الزنزانة، وهي رشيقة وترقص بفستانها الأحمر «رقصة الفلامنكو».

الدموع والقناع

لا أعرف الكثير عن جيراني ولا أتابع أخبارهم، ولكن بدأت هذه القصة بدموع على الورق!

كانت لابني الأكبر هواية الرسم، ودائمًا ما أتابع لوحاته المرسومة بعناية وبشغف، ولكن استوقفني في لوحته الأخيرة بحر الدموع المرسوم، ومن خلفه امرأة باكية تحاول أن تهرب من نهر الدموع وهي تصرخ.

قُلتُ له مستفسرًا:

– مين دي يا محمود؟ إيه فكرة اللوحة دي؟

قال لي:

- الفكرة جاتلي يا بابا بصراحة من جارتنا اللي قدامنا.. شوفتها بتبكي من يومين بشكل هيستيري وهي نازلة السلم.

- ما تعرَفش ليه يا محمد؟ حد أذَاها مثلًا؟ جوزها عمل فيها حاجة؟

- مش عارف بصراحة يا بابا، ماحبِّتش أتدخّل في الموضوع.

كل ما أعرفه عن الأستاذ شوكت في الشقة المقابلة لنا أنه رجل محترم كما يقول سكان المنطقة، ولكن هذه الجملة قد تُخفِي الكثير والكثير، ربما يرتدي قناع المحترم ولكن لا يُبطِن غير الشر.

قرأتُ عن نظرية القناع لكارل يونغ.. القناع الذي نواجه به المجتمع ونعيش به أمامهم ونواجههم، فهل يرتدي جارنا قناع الرجل المحترم وهو يقوم بضرب زوجته حتى فاضت بها الدموع؟

بدأ الموضوع يثير في نفسي الشكوك، خصوصًا مع مرور أسبوع وسماع أصوات غريبة في شقة الأستاذ شوكت، سمعت صوت صراخ بالداخل وعنف في غلق الباب، ورأيتُ شابًّا في عمر المراهقة وهو يبكي ويجري مسرعًا.

ما الذي يحدث في شقة هذا الرجل؟ ما الذي يخفيه عن سكان المنطقة؟ لا بُدّ أن أكشف المستور وأعرف ما يدور في تلك الشقة التي تخفي أكثر مما تعلن.

في أحد الأيام قابلني جارنا الذي يسكن في الدور الخامس، ولم أكُن أعرفه كعادتي مع جيراني، ولكن تقرَّب لي بشكْل غريب، وهمس في أذني وقال:

– لسَّه برضُه شوكت بيعمل عمايله؟

قلت له والغموض يعصف بعقلي:

- هو بيعمل إيه مش فاهم؟ فيه حاجة غلط اليومين دول في شقته بس مش عارف فيه إيه؟

- طيب خلي بالك بقى عشان ممكن يضُرّ سمعة العمارة بالكامل.

- أنا ماليش دعوة بيه، أنا في حالي دايمًا، أنا حتى أول مرة أشوف حضرتك.

- فرصة سعيدة.. أنا قلت بس أحذرك، أنا دكتور أيمن جارك.. تشرَّفت بمعرفتك.

هذا المبنى يزداد في الغرابة يومًا بعد يوم، من هو أيمن؟! وما علاقته بشوكت؟! هل يُخفي سًّرا ما؟ أم يحاول تشويه سمعة شوكت؟ أم هي سمعة سيئة بالفعل عكس ما يقولُه سكان المنطقة؟

الآن يبدأ المعسكر.. لا بُدّ أن أخطّط وأعرف كل ما يدور حولي قبل أن تقع الفأس في الرأس كما يقولون.

سأراقب شوكت منذ خروجه لأعرف كيف يدور يومه؟ وما هو سره ولماذا يؤذي زوجته؟! انتابَتني موجة من الشكوك، خصوصًا بعد حواري مع جاري دكتور أيمن.

خرج في العاشرة صباحًا وتتبّعتُ مسيرته في منطقتنا الشعبية، وبدأ يدخل في شوارع غريبة و أنا أسير خلفه و أتتبّعه كظله.

بدأ ينتظر وينظر في ساعته، ثم أتاه رجلٌ يتلفَّت حوله وأعطاه بعضًا من الأكياس الشفافة التي تحتوي على بودرة بيضاء، ثم وضعها في كيس أكبر في الحجم وأعطاها لرجل آخر في عربة لنقل البضائع متوسطة الحجم.

الآن أكشف المستور خلف هذا الرجل؛ إذًا الموضوع يتعلق بالمخدرات، هذه اللعنة التي دمّرَت بيوتًا وعلاقات وعقولًا، وخلقَت من الرجال مُسُوخًا.

لهذا يضرب زوجته إذًا، المخدرات بدأت تلعب برأسه ويتعكر مزاجه وتسوء حالته، ربما كان يضرب ابنه أيضًا الذي رأيتُه يخرج مسرعًا من الشقة، ربما هذا الشاب المراهق ابنه.

هذا الشيطان يضرب زوجته و ابنه ويتاجر في المخدرات، ما الذي يفعله أيضًا غير ذلك؟ وكيف يقال عنه أنه «المحترم»!

حقًّا إن لحياة كما الحفلة التنكرية، ولا نعرف حقيقة ما تحت الأقنعة إلا بعد انتهاء الحفلة ووضع الكؤوس.

في يوم آخر تتبَّعتُ شوكت إلى مكان يفوح بسوء السمعة.. بار الرذيلة المجاور لحارتنا المليء بالخمور وبائعات الهوى، هل يخون زوجته أيضًا؟ يا

لكَ من وحش يا شوكت! ما هذا العفن الذي يلتفّ حول روحك بأذرعه كما الأخطبوط؟

قابلتُ دكتور أيمن مرة أخرى، وكان يرتدي نفس الملابس السوداء التي رأيته بها المرة الماضية وكأنه يعشق هذا اللون، وقال لي هامسًا مرة أخرى:

- اتأكّدت ولا لسه؟ عرفت حقيقتُه؟

- حقيقة إيه؟ انت مر اقبني ولا إيه؟

-لا مش مر اقبك، بس قلت أكيد فضولك هيِدْفَعك تدوّر ورا كلامي وتشوف حقيقة الراجل ده.. مش قُلتلَك؟

- كلامك شكله صح.. الراجل ده طلع مصيبة ومش سهل أبدًا، ومش عارف أتصرف ازّاي؟

- بيعمل إيه غير ضرب مر اته؟

- ده بيخونها، وشكله بيشرب أو بيتاجر في المخدرات كمان، وبيضرب ابنه.

- يا ساتر يا رب، والناس فاكرينه محترم.. تحت السواهي دواهي.

- طيب يعني هتصرَّف ازاي دلوقتي؟ ده ممكن يخبي مخدرات في العمارة أو حاجة، وسمعتنا تبقى زبالة.

- لو منك أقول لمر اته، أو أقول لسكان المنطقة و أفضحُه.

- طيب ما تيجي معايا يا دكتور أيمن.

- معلش أنا مستعجل جدًّا، بس البركة فيك.

خرج مسرعًا كالعادة ولا أعرف طبيعة العلاقة المتوترة بين أيمن وشوكت، ولكن أيمن كان على حق فيما قاله حتى الآن.

في اليوم التالي ازدادت أصوات الصراخ، وخرج الشاب المراهق يجري مسرعًا مرة أخرى، ولكني استوقفتُه قائلًا:

– كابتن.. استنَّى.. فيه إيه؟

قال لي وهو يبكي:

- أرجوك مالَكش دعوة.. انت ما تعرفش حاجة.

- أنا عارف كل حاجة، كل ده بسبب المخدرات، صح؟ اعترفلي وقُول.

- انت عرفت الكلام ده منين؟ محدش في المنطقة يعرف، انت مراقبنا؟

- مش مهم عرفت منين.. المهم إنه صح!

- بابا حاول كتير في الموضوع ده، لكن الموضوع أكبر مني ومنه.

- طيب هو بيضربك بسبب الموضوع ده؟ يعني اللي بيحصل عندكم بسبب المخدرات؟ فهمني.

- حاول ما تتدخَّلش أكتر من كده، مالكش دعوة بينا وسيبنا في حالنا.

هرب من أمامي مسرعًا مرة أخرى وترك السّر مُعلّقًا خلفه، لماذا يتكتم عن ضرب أبيه له؟ ولماذا يهرب باكيًا كل مرة من أمام شوكت؟ ما الذي فعلتَه لعائلتك يا شوكت ولماذا دمّرتَهم بهذا الشكل؟

للأسرار والفضول لذة غريبة، تشبه الرمال المتحركة.. كلما قاومتَها غرقتَ في باطنها ولا تعرف إلى أين سيقودك مصيرك بعدها.

قررتُ أن أدخل مرحلة المواجهة.. قررتُ أن أواجه الزوجة وأعرف ما الذي يحدث لها؟ وما الذي يفعله شوكت داخل هذه الجدران المختنقة بالأفعال الشائنة المتستّرة بالفضيلة.

تتبّعتُها إلى السوق، وقلت لها في هدوء:

- أنا عايز أقول لحضرتك ربنا يكون في عونك، واللي بيحصل من وراكي أكتر من اللي انتي فاكراه.

- حضرتَك تقصد إيه؟

- أنا عارف عن موضوع المخدرات، لكن الموضوع ليه أبعاد أكتر من كده.

- انت عرفت منين؟ مين قالَّك ع الموضوع ده؟

- المهم إني عرفت.. هو بيمد إيدُه عليكي؟

صمتَت قليلًا ولم تسترِح للحوار، ثم انسحبَت في هدوء، من الذي يمكن أن أكلمه بعد ذلك؟! الموضوع بدأ في الاستحواذ على يومي وتفكيري بشكل تدريجي؛ حتى أصبحتُ لا أفكر في شيء غير شقّة شوكت.

لا يوجد حل الآن غير أن أتحدث مع سكان المنطقة طالما أسرة شوكت ترفض المواجهة وترفض كشف السر والستار.

ذهبتُ إلى القهوة المجاورة، ودخلت إلى صاحب القهوة «الحاج طلبة» الذي يحترمه سكان المنطقة ويعتبرونه بمثابة الأب والحامي لمنطقتنا.

- مساء الخير يا حاج طلبة.

- أهلًا وسهلًا يا أستاذ سليم.. ازيك يا راجل انت فين من زمان؟ طالت غيبتك علينا.

- أنا بخير الحمد لله، كنت عايز أسألَك على حاجة مهمة جدًّا.

- اتفضل يا حبيبي، اؤمرني أمر.

- الأمر لله.. كنت عايز أعرف إيه حكاية شوكت مع المخدرات؟ وإيه اللي بيحصل ده وازّاي المنطقة ساكتة؟

- انت عرفت القصة دي؟ ده احنا مكتّمِين عليها جامد.

- أنا شوفت الأكياس بنفسي.. وهو بيسلّم ويستلم.

- أكياس إيه دي؟

- أكياس المخدرات في الحارة اللي ورانا، وكمان الراجل اللي قاعد علي الكرسي اللي هناك ده.. كان بيسلّمُه البضاعة.

- ياه.. ده انت حكايتك حكاية.

- ليه بتقول كده؟

- مخدرات إيه يا راجل يا طيب؟! ده الراجل اللي قاعد ده تاجر دقيق، وبيسلّم شوكت كمية دقيق بيسلّمهُم للغلابة كل رمضان بقى و انت طيب.

- أومال بتقولّي عرفت ليه؟ يعني موضوع المخدرات حقيقي؟ شوكت بيشرب مخدرات ولا لأ؟ وليه بتقولوا عليه محترم؟

- هو فعلًا راجل محترم، بس موضوع المخدرات حقيقي وهو مالوش ذنب فيه.

-محترم وبيشرب مخدرات؟!

-انت فاهم الموضوع غلط تمامًا، أنا هَقُولّك كل حاجة...

بعد أن علمتُ كل بواطن الأمر تعجّبتُ كثيرًا مما يفعله الشك والوسواس، علمتُ أن ابن الأستاذ شوكت هو من يشرب المخدرات، ويقوم أبوه بعلاجه في إحدى المصحات ولم يُجدِ معه العلاج.

و أثناء ضربه لابنه كان بسبب أن الابن هو من يحاول سرقة الذهب من الأم لشراء المخدرات؛ فقام شوكت بطرده، ولهذا كانت الأم تبكي، ولم يضرب شوكت زوجتَه أبدًا في حياته.

كانت بقية أبناء شوكت من الصالحين وأصحاب السمعة الجيدة في أعمالهم ودراستهم، ولكن كان أخوهم الأصغر هو من وقع في فخّ التعاطي لهذه المادة المسمومة

أما عن قصة «البار» فقد كان شوكت يبحث عن ابنه ليحاول علاجه مرة أخرى، ويضطر إلى دخول هذا المكان ولكن للبحث عن ابنه وسط الفئة المنحرفة من الشباب بالداخل من أصدقاء ابنه.

ولكن ربما تتعجبون أيضًا من أنّني قمتُ بالبحث عن الدكتور أيمن، ولم أجد من يسكن المبنى بهذا الاسم أبدًا.

هل كان مجرد وهم؟ هل هي أفكاري؟ شياطيني الداخلية أم الوساوس التي تم علاجي منها سابقًا هي السبب؟

لا أعلم تحديدًا، ولكني أعلم الآن أن مراقبة الناس والفضول قد يدمّر حياة أشخاص.. وأولهم المتطفّل ذاته.

قرية الأيائل

لا أحد يستطيع دخول قرية «الأيائل»، والأيل هو حيوان شهير له قرون على رأسه ومشهور بقدرته على العدو السريع والدفاع عن نفسه باستخدام القرون.

لم يتخيّل قاطنو قرية «الأيائل»، أو كما كانت تسمى «العمدة» سابقًا أن يحدث فيها كل هذا التحول جراء الظلم والطغيان من العمدة وأعوانه من المطاريد وبعض رجال الأعمال.

قاموا بالاستيلاء على المحاصيل والأراضي لصغار المزارعين، وبدلًا من أن يحمي العمدة ساكني القرية قام بتسميتها قرية «العمدة»، وكان كل ما فيها مِلكًا له وللعصابة المحيطة بها والمتحكمة في كل شبر من القرية المسكينة.

في يوم من الأيام حدثَت المعجزة التي كان ينتظرها سكان القرية، كانوا قد تعوّدُوا على الهجمات الليلية ونهب المحاصيل، وإعادة تعيين المساحات للأراضي، وتزوير العقود من العمدة وشيخ الغفر والمطاريد والبلطجية.

وفجأة سمع الأهالي صوتًا غريبًا في وسط الأراضي الزراعية، وظهر أحد المواطنين بقرونٍ تشبه قرون «الأيل».

انتشرَت الإشاعات والأقاويل عن المواطن «حمدان» الذي نمت قرونه بشكل كبير جدًا، وقام بقتل عدد من المطاريد الذين حاولوا الاستيلاء على أرضه بقرونه الضخمة.

بدأ الأمل يدُبُّ في قلوب سكان القرية، وتمنوا لو ظهر العديد من هذه التحولات الغريبة للسكان؛ للحصول على حقوقهم المنهوبة طيلة سنوات.

رفض العمدة بالطبع مثل هذه الأقاويل، واعتبر وجود المواطن الأيل خرافة، بل قام بشطبِ حمدان من سجلّات المواليد وكأنه لم يوجد هنا من الأساس، وقام بخطف عائلته أثناء وجوده في وسط الأرض.

علِمَ حمدان بخطف عائلته، وأصدر صوتًا رهيبًا لصراخ الأيل وتوعد بالانتقام، وبدأ نصف جسده في التحول تدريجيًّا أيضًا، وأصبح كما الكائنات الأسطورية «نصف إنسان ونصف أيل».

وقف العمدة على منصة كبيرة، وقام بتوجيه خطاب لأهل القرية، وقال:

– اللي هَيقُول إنه شاف الأيل أو إن حمدان اتحوّل هعَلَّقُه بالحبل عشان يكون عبرة لمن يعتبر.. كفاية إشاعات وكلام فارغ، أنا هربِّيكُم يا غجر!

بدأ الكل يخاف من المصير المنتظر، بل إن البعض رفض التصديق رغم رؤيته للأيل بنفسه، ولكن الخوف قد يُخرِسُ أعتى الحقائق ويُضِيع أقوى الحقوق.

حتى قال الدكتور بدر ذات يوم على قهوة القرية:

– يمكن ده نوع جديد من التطور، دي نظرية علمية مشهورة، لكن التطوّر هنا حصل بسبب الظلم والطغيان.

كان الدكتور بدر بمثابة «عالم القرية»، والكل يصدق كلامه ويُسلّم به دون أية مراجعة لكلامه.

بدأ كلامه في الانتشار حتى وصل للعمدة، وكان العمدة لا يعرف ما هي نظرية التطور؛ فسأل عنها أصدقائه من المدن المحيطة بالقرية، ووجد الحل المثالي.. سيقوم باتهام الدكتور بالكفر والإلحاد.

بدأَت المساجد في القرية تحدّد خطبتها وتتّهم الدكتور «عالم القرية» بالكفر وتصديق نظرية التطور، وإن المواطن قد يتطوّر إلى أيل بسبب الظلم.

ووقف الخطيب يقول بحماس على المنبر:

– الدكتور بدر بدأ يخرّف، بدأ يجدّف ويكفر ويصدّق نظريات الغرب الكافر، قال تطوّر قال، ناقص المواطن يتحوّل لأسد بقى ولا حتى لكلب، أعوذ بالله من غضب الله، النظريات جنّنتُه وخرّجتُه من الملة، استغفروا الله جميعًا.

بحث العمدة أكثر وأكثر في قصة القرون والأيل، وهو يعلم جيّدًا أنها حقيقة، خصوصًا مع تزايد حالات الوفاة بين المطاريد في وسط الأراضي الزراعية وهجوم حمدان عليهم بقرونه.

وعلِمَ أن الدراسات تُجرَى في الغرب على الأيل وقرون الأيائل لتحليل القدرات الجينية للأيل؛ لكي تكون بداية لتجدّد الأنسجة العظمية لدى البشر.

هكذا قرأ في إحدى المقالات، وأسرع في استدعاء الدكتور بدر، وبعد أن جاء لبيت العمدة والقبض عليه، قال الدكتور بدر وهو مكبّل الأيدي:

- تحت أمرك يا عمدة.

- ازيك يا دكتور؟ كنت فاكر إنك هتهْرَب مننا؟ ألحَدْت يا دكتور وبقيت زي الخواجات بتوع التطور؟

- أعوذ بالله، انا مش ملحد ولا حاجة، دي نظرية علمية، ثم إن اللي بقولُه مجرد افتراض مش شرط يكون تابع للنظرية، دي حاجة من تفكيرِي أنا.

- أنا بس اللي أفكّرو أقررهنا يا بدر.. انت تسمع وتنفذ.

- أوامرك يا عمدة.. بس انت جايِبْني ليه هنا؟

- عايزين نستغِل موضوع الأيل اللي ظهر ده لصالحنا، أنا عارف إنه موجود وبيقتل في المطاريد، وكل يوم واحد بيموت ورا التاني، ولو ظهرت حالات تاني تبقى مصيبة.

- وهَتعمِل إيه في الموضوع ده يا عمدة؟ وازّاي أقدر أساعد؟ أنا ما أقدَرْش عليه.

- انت قادِر تشيل نفسك يا دكتور؟ أنا مش طالبك عشان كده، أنا عايزَك تساعدني بعد ما نمسِكُه ونكسّر قرونه إننا نودّيها القاهرة يعملُوا عليها دراسات.

- دراسات إيه يا عمدة؟ الموضوع ده كبير، ما أظنش هيتِمّ ولا عندنا الخبرات الكافية.

- أنا قريت إنهم بيعملوا أبحاث ودراسات على قرون الأيل.

- أيوة ده برّه، عشان قرونه المتساقطة اللي بتتجدّد، وبعدين الأيائل أنواع كتير جدًا، وحمدان شيء غريب وهجين غير مفهوم.

- خلاص أنا هَجِيب القرون وهمَوِّت حمدان وهو بيجدّد قرونه، وهَبعَتْها للباحثين في القاهرة، انت جاي هنا تقطَّمْني؟ امشِي من وشِّي يا كافر.

بدأ العمدة في العمل على فكرة القرون المتساقطة، والانتظار لتجدّد قرون حمدان وتساقطها للهجوم عليه، تلك القرون التي قتل بها العشرات من المطاريد والغفر وبدأت القرية تراه بطلًا شعبيًّا.

بل إن المخيف في الأمر أن الرسومات على الجدران بدأت في الانتشار في كل مكان لقرون الأيل بألوان زاهية وواضحة، ومكتوب على الجدار «حتى لو من غير شهادة ميلاد.. هِيفضَل حمدان مولود في قلوبنا".

بل ظهرت إشاعة تقول إن هناك مواطنًا آخر قد تحول هو الآخر، ما الذي يحدث؟ هل هي عدوى منشرة؟ هكذا سأل العمدة أعوانه.

رد أحد الجالسين في الاجتماع:

- مش عارفين يا عمدة، بس الموضوع بقى مخيف.. الناس بتقول سمعوا صوت امبارح شبَه صوت حمدان في وسط الأراضي الغربية، لكن طلع مش حمدان ده واحدة تاني اتحوّل، والموضوع ده لو كبِر هَنضِيع كلنا ورجالتنا هَترُوح فطيس.

- لسه مش عارفين تمسكُوه ولا تجيبوا قرونُه يا بهايم؟

- إيه موضوع قرونه ده يا عمدة؟ دي ما بتوقَعْش ولا حاجة زي ما بتقول، و إيه اللي يهمّك في دراسة علمية؟

- ما يهمِّنِيش يا غبي، أنا قولت يمكن يطلَع حمدان فصيلة نادرة ونعمل منه سبّوبَة حلوة ونكسب قرشين من شوية الدكاترة المجاذِيب بتوع العلم دول.

- دلوقتي رجالتنا الكبار يا عمدة وأصحاب البيزنيس قلقانين، وبيقولوا لازم نعمل أقصى ما في طاقتنا للسيطرة، وإن الفكرة دي ما تطلَعْش برّه البلد.

- محَدّش في القرى اللي حوالينا لسّه خَد خبر.. واللي هَيُنشر الموضوع هَجلِدُه بإيدي ومش هَرحَمُه.

بدأ القلق يستشري في أوصال رجال الأعمال الفاسدين المحيطين بالعمدة، ومن تربحوا الملايين من أموال أهالي القرية ونهبوا أراضيهم، تعوّدُوا على المال الحرام وسرقة المحروم حتى صار هو الوضع الافتراضي لهم، ومصدر دخل كبير وإضافي لثرواتهم.

فكّر العمدة في صنع عِدَد الصيد المبتكرة وكمين كبير لصيد حمدان وتابعه الآخر، لكن دون جدوى.. كان الأيل سريعًا للغاية وقرونه تضرب بكل قوة.

حتى استطاع حمدان في مواجهة العمدة في عُقر داره دون خوف أو رهبة، وفي منتصف الليل حاصر سريره، وقال له:

- عارفني يا عمدة؟

- يا حفيظ يا رَبّ.. انت ازاي دخلت هنا؟! ازّاي هربت من الغفر اللي برّه؟

- زي ما هربت من ظلمك وجبروتك وفسادك.. القهر والطغيان غيَّرنِي وبدّل هيئتي.

- أنا ما عملتش حاجة ليك.. هُمّا اللي قتلوا عيلتك، أنا مظلوم يا حمدان.

- مظلوم؟! انت مظلوم؟! انت قاتل وسفاح.. شرِبت كتير من دم الغلابة لحد ما بقى طعمُه عصير في بُقّك، انت مجرم ولازم حد يحاسبك على إجرامك.

حاول العمدة أن يمسك بسلاحه سريعًا، ولكن كان حمدان قد طعنَه بالفعل بقرونه طعنة نافذة أخرجَت الأحشاء من الجسد بشكل مُفزِع.

وبدأت الحالات تتزايد في القرية، يُقال إن أكثر من خمسين من الأيائل قد ظهروا وهم يصرُخُون ويدافعون عن أراضِيهم.

كان هناك موعدٌ مرتقَبٌ لرجال الأعمال مع العمدة، وقد حضر رجال الأعمال بالفعل إلى القرية من سوء حظهم، ولكنهم علموا أن العمدة قد مات في غرفته، وأصبحت القرية بلا رقابة وتحت سيطرة الأيائل.

حاولوا الهروب مُسرعِين من ناحية الأراضي الشرقية، ولكن المكان أصبح مُحاصًرا من حولِهم بأصوات الأيائل التي أرعبَتْهم وجمّدَت الدماء في عروقِهم.

بدأ حصار سيارات الوفود وكسر الزجاج، ثم الهجوم عليهم وإخراج أحشائهم بالقرون التي من المفترض أنّها دفاعِيّة.

أصبحت قرون الأيائل هجومية وعدوانية بدلًا من الدفاع عن نفسها وأرضها، وهو ما مهّدَ لظهور «المواطن الذئب»!

نعم.. إنه الجنون يا سادة، انتشرت في القرية الأقاويل حول ظهور نصف ذئب ونصف إنسان، تطوّرَ الأيائل من الدفاع إلى الهجوم، ثم ظهرت الذئاب للهجُوم المضاعَف.

وبدأت الأخبار في الانتشار في كل الأماكن المحيطة، وتم تغيير اسم القرية إلى «قرية الأيائل» بدلًا من «قرية العمدة»، وحصل كل الفلاحين على حقوقِهم وتم وضْع قرون عملاقة على مقر العمدة.

وبدأت حالات المواطن الذئب في الزيادة والانتشار كما الفيروس.. وحذاري من تعاون الأيل مع الذئب.. حذاري لكل الفاسدين وسارقي الحقوق من المدافعين عن الحقوق.. وأخذ الحقوق بالقوة.

وحذاري للفاسدين من الأيل ثم الذئب.. وربما ثم «الأسد«!

غرفة الأوهام

لا أعرف لماذا تم تكبيلي بالأصفاد وجَرِّي بشكل عنيفٍ إلى هذه الغرفة؟! ربما أصبح فرضًا على كل شخص أن يدخلها ولو مرة واحدة ثم يختار مصيره بعد ذلك، ولكني لا أعتقد أن يكون المصير بيدِنا بعد الآن، وبعد ما نمر به من مراحل داخل هذه الغرفة الواسعة، أو قل «غرفة الأوهام«.

كانوا أربعة أشخاص من حولي.. انقضّوا فجأة على جسدي وأخذوني إلى تلك الغرفة الواسعة الممتلئة بالمقاعد وصالات الانتظار واللون الأزرق.

كانت هناك ثلاجة كبيرة مليئة بالحقن، ومكتوب عليها بحرف صغير حرف «د».. هل سيقومون بقتلي بتلك الحقنة؟ وهل قاموا بقتل غيري؟

دخلتُ إلى صالة الانتظار وجلست طويلًا، كلما سألتهم عن طبيعة مهمتي قالوا لي أن أخرَس الآن حتى يخرجِ من في الداخل.

خرج البعض بالفعل من الغرفة وهم يرتدون قفازات الملاكمة، ثم ذهبوا سريعًا على الثلاجة وطلبوا حقهم في الحقنة، ثم ظهرت عليهم أعراض كالنشوة، لا أعرف ما هي المادة التي تم حقنهم بها؟ ولكنها أشبه بالمخدرات.

ثم نادوا على اسمي فجأة: «أستاذ عادل أيوب.. يتفضل معانا جوة«.

قام الرجال الضخام بسحبِي إلى الداخل، ثم جلستُ على أحد المقاعد أسألهم لماذا أتيت إلى هنا؟ دون أية إجابة واضحة من الجميع.

جلس أحدهم ليتفحصني ثم قال:

– شكله فاهم.. هَنِحتاجُه ده في اللعبة بتاعتنا.

قلت في غضب:

- لعبة إيه حضرتك؟ انتوا عايزين مني إيه مش فاهم؟

- اقعد بس وهاتفهم كل حاجة.. مش لازم تعرف دلوقتي.

- يعني إيه مش لازم أعرف؟ انتوا خاطفِينّي يعني؟ فاكرين هتطلُبُوا فدية؟ أنا مش معايا فلوس.. ولا عيلتي معاها فلوس.

- فلوس إيه؟ احنا عايزين عقلك.. احنا خاطفين عقلك.. احنا طمعانين في عقلَك وغرورك.

- بس أنا مش مغرور.. مين قالّكُم عني الكلام ده؟

- بعد كام حقنة هَتكُون كده، احنا و اثقين في الأوضة دي.. وازّاي هَتُخرج من لعبتنا شخص تاني.

- وهو لما أكون مغرور هَكُون شخص تاني؟ شخص أسوء يعني ولا أفضل في رأيك؟

- جميلة منك كلمة «رأيك».. هو ده الكلام.. بدأْت تسخَن أهو معانا.

- انت أكيد مجنون.. انت نفسَك مش عارف عايز مني إيه.

- شوف.. احنا هَنلْعَب كام لعبة معاك، وعايزينَك تخرج منها منتصر.

- ألعاب؟! خاطفِنّي عشان ألعب معاك كام لعبة؟ ده تضييع وقت وهيافة.

- الوقت مش عُملِتنا هنا.. هنا الناس بتقضي ساعات وشهور وسنين وهُمّا مش حاسِّين أصلًا.

- للدرجة دي الموضوع ممتع يعني؟

- الفكرة مش في المتعة.. الفكرة في الإدمان.. عدم القدرة إنك تخرج بسهولة إلا و انت منتصر، والمهزوم بيرجع تاني وعاشر عشان يفوز.

- يعني الحقن اللي برّه في التلاجة دي بتخليهم مدمنين زي ما توقَّعت.

- مظبوط كده، لكن هُمّا اللي بيروحوا ليها بإرادتهم.. أنا ماضربتش حد على إيده.

- و انت بقى مصمّم الغرفة دي ومخترعها؟

- بالظبط كده.. أنا مصمم المكان والألعاب، صدَّقني بعد التجربة هَتحِبّني أكتر.

يزداد الموضوع غموضًا وتعقيدًا، وما زلتُ لا أعرف طبيعة هذا المكان وسبب وجودي أنا تحديدًا، وما هي هذه الألعاب التي يدمن عليها البعض؟

أخافُ أن أدمنَ مثلهم وأصبح مهووسًا بالغرفة ولا أخرج منها لأقوم بهو اياتي و أفعل ما أحب.. أخاف أن تمر عليّ السنوات دون أن أشعر ويضيع العمر داخل الغرفة مثل أصحاب الشعر الأبيض بالداخل، والذين جلسوا هنا لسنوات مثلما قيل لي.

جاء وقت الجولة الأولى من الألعاب، وتسمّى لعبة «أبو العُرّيف»، جلس شخص أمامي ثم جهّزُوا عددًا من الحقن حولنا للمنتصر، وبدأ النزال الكلامي، وقال لي:

- انت أصلًا ليك رأي في القضية يعني؟

- قضية إيه يا أستاذ؟ هو إيه الموضوع؟

-جاي هنا ومش عارف إيه الموضوع؟ الموضوع السائد.. الموضوع المنتشر في كل مكان في البلد يا حبيبي.

- أيوَة موضوع إيه يعني؟ وليه لازم يكون ليّا رأي فيه؟

- لأن لازم يكون ليك هنا رأي في كل حاجة.. وفي أي قضية وفي أي وقت، انت جاهل ولا إيه؟

- طيب ده الجاهل هو اللي بيفْتي في كل حاجة مش العكس، المفهوم أتكلم في اللي أفهم فيه.. في اللي أنا قريت فيه كتير، أو متخصص فيه كمان.

- أنا بتكلم في الفُلك وصفقات السلاح والسياسة وعلم النفس والفلسفة وكل القضايا.

- هو حضرتَك عمرك كام سنة عشان تعرف كل ده؟

- 25 سنة، لكن خبير.

- انت مش خبير.. انت مدّعي مش أكتر، بتاخد كام جملة تعمل بيهم إنك خبير، لكن الخبير الحقيقي عمره ما هَيتكلّم في كل القضايا، لازم ييجي عليك وقت وتقول بكل ثقة "أنا مش فاهم فيه» ده الطبيعي، إنما الجاهل فاكر إنه عارف كل حاجة.

- أنا عارف كل حاجة فعلًا، وبنتصر هنا في كل الألعاب.

- سمِعت عن تأثير دانينغ-كروجر؟

- ممكن أكون سمعت عنه.

- انت ولا سمِعْت ولا نيلة وبتفتي وخلاص، أهو ده ينطبق عليك.. وهو إنك بتبالغ في تقدير مهارتك وبتعاني من وهم التفوق، وأصلًا قدراتك أقل بكتير مما تدّعِيه.

- أنا ما أسمَحلَكش.. انت أصلًا جاي هنا ومش عارف إيه هي القضية وبتهمني أنا بالجهل؟

- قضية إيه يا أستاذ؟ القضية المهمة قوي دي بالنسبة لك ممكن ما يكونش ليها معنى بالنسبة لي، مين قال إنّي لازم أتكلم فيها؟

- لأن الدنيا بتتكلّم فيها دلوقتي.

-ممكن يكون الكل بيتكلم فيها بسطحية، أو إنه موضوع تافه في الأساس، ولكن انتشر وبدأ يدخل الموضوع في السخرية اللي بيحبها بعض الناس الفاضية.

- أنا خبير في كل القضايا.. وعمر ما حد نافِسْني فيها، انت بتخرج برّه الموضوع وبتحاول تحلِّلْني وتحلّل شخصيتي.

- أنا مش بحلِّلَك ولا نيلة، انت من نوعية اللي ينطبق عليهم المثل الروسي اللي بيقول «فليحمِنا الله من الرجل الذي قرأ كتابًا واحدًا فقط«!

- أنا قريت كتاب واحد؟ انت أكيد مجنون! أنا قريت ييجي مليون كتاب.

- و انت لسه في العشرينات؟! مش بقولّك بتفتي وكذاب.

بدأت المشادة الكلامية تزداد في لعبة «أبو العريف» الذي جلس أمامي يتحدث ويتحدث عن معرفته وضرورة أن أتحدث في أي قضية مشهورة، حتى ولو لا تهمني على الإطلاق.

كان مصمم الغرفة سعيدًا.. كلما زادت وتيرة وحدة النقاش كلما زاد عدد الحقن حولنا، وكلما زاد عدد الحاضرين في الغرفة.

بعد أن زادت حدة النقاش أكثر وأكثر قاموا بإعطائنا قفازات للملاكمة، وأمرونا أن نصعّد الموضوع، وقال لي أحد الحاضرين:

- يلّا.. ادخل على التقيل بقى.

- أعمل إيه يعني؟ أضربه؟ أنا هَخرُج وخلاص.. اعتبر إن هو منتصر يا سيدي ما يهمنيش أصلًا.

- ازّاي الكلام ده؟! لازم تضربه.. أو على الأقل تشتمُه هو وأهله.

- ليه كل ده؟! عشان إيه؟! عشان قضية كل واحد ممكن يكون ليه رأي فيها؟ هو عشان نختلف لازم نضرب ونشتم بعض؟!

- أومّال احنا حاضرين ليه؟ احنا جايّين نشجع، وبعدين مش هتاخد الحقنة غير لما تضربه.. الفائز هو اللي بياخد الحقنة في النهاية.

- مش عايز حقنة ولا عايز ألعب أي ألعاب تانية، أنا منسحب.

تم احتساب النتيجة لصالح «أبو العريف» بسبب انسحابي، وأعطوه عددًا لا بأس به من الحقن في ذراعه لتسري في شرايينه لذة غير موصوفة تظهر في بريق عينيه، وحالة الانتشاء التي يمر بها.

جاء مصمم الغرفة وربَتَ على كتفي، ثم قال لي:

- ممكن تكون خسرت الجولة، لكن قُدّامك فرصة تانية للتصحيح.

- تصحيح إيه؟! أنا مش عايز أفوز بحاجة، انتم كلكم مجانين، اللي بيحصل ده اسمه تضييع وقت بالكامل في قضايا لا نفع منها.

- قولتلك الوقت مش عُملِتنا هنا.. الوقت بيمر بشكل غير برّه تمامًا، انت فاكر كلامك مع أبو العريف قعد قَدّ إيه؟

- ساعة أو ساعة ونص مثلًا؟ مش عارف ما هو انتم مش حاطِّين ساعات خالص.

- انتوا بقالكم أربع ساعات بتتكلموا في لَتّ وعجن.

- طيب كويس قوي إنك بتستخدم الجملة دي، وكويس قوي إنك فاهم إنه فعلًا لَتّ وعجن بدون داعي وبدون أهمية، يا ريت بقى تخرَّجني من هنا واعتبرني مغلوب في كل الألعاب.

- يعني مش هَتدُوق لذة الحقن دي في حياتك كلها؟ مين يقدر على ده دلوقتي؟

- هو انتوا الأوضة الوحيدة هنا اللي فيها الحقن دي ولا فيه ضحايا تانيين؟

- فيه أكتر من أوضة حوالينا.. وكلهم فيهم الحقن دي وأكتر كمان.

- يعني ليكم ضحايا كتير بتحوّلُوهم للإدمان والجهل وتضييع الوقت، مش كده؟

- انت اللي بتسمّيه كده، لكن احنا بنسميه الإدمان اللذيذ.. والكل هنا مستمتع.

- مستمتع أو مغيّب ومش عارف، اللذة الحقيقية في القراءة والمعرفة وتقضية الوقت في هواية أو رياضة أو أي حاجة تفيده.

- المهم لازم دلوقتي تدخل على اللعبة التانية، مش هَتِقدَر تمشي ولا نسِيبك قبل ما تلعَبها.

- طالما أنا مُجبَر.. يبقى يا ريت تنجز عشان عايز أمشي من المكان المُقرِف ده.

ظهر أمامي ثلاثة توائم متطابقون تمامًا.. كل منهم يحمل عنوانًا غريبًا على صدره، ثم قال لي المصمم:

- عايزك تعرف مين فيهم بيقول الحقيقة.

- حقيقة إيه؟ ده كل واحد مكتوب عليه خبر غير التاني.. ده في جملتين عكس بعض أساسًا!

- دي مهمتك دلوقتي، وعايزَك كمان تفهم إنهم رافعين على بعض شكاوي وقضايا، وكل واحد بيقول إنه هو اللي بيقول الحقيقة والتاني مزيف وبينصح الناس تبعد عنه.

- والمطلوب بقى الناس تضيع وقتها وتقعد تدوّر مين فيهم بيقول الحقيقة.

- وتجيب كمان يا ريت ما يُثبِت وجهة نظرك وتدعم بالأدلة والبراهين.

- انتوا عالم فاضية.. أنا ماشي من هنا.

- مش هَتقْدَر تمشي إلا لما تجاوِب.

- ماشي هَجَاوب بالحظ وخلاص.. من غير أي أدلة.. اللي في النص ده اللي بيقول الحقيقة.

اختفَى فجأة الآخران وبقي مَن في المنتصف، وقاموا بإنارته بعدد من الأنوار الزرقاء المختلفة، وقال أحدهم في مكبر الصوت: «الإجابة صحيحة.. تستحق عدد من الحقن في ذراعك الأيمن».

لا أريد تلك الحقن الملعونة، ولا أريد أن أدمن تلك الغرفة، ولكنهم أعطوني إياها بالإجبار، جلستُ مُكبّلًا هنا لسنوات غارقًا في بحر من الحقن، أصبحتُ ملعونًا بالمعرفة السهلة والمعلومات الرخيصة مثل أبو العريف، بل أصبحتُ داخل الغرفة أُنازِل الآخرين، وأصبحت أنا «أبو العريف« الجديد.

عرفتُ أن الحقن المكتوب عليها حرف «د» هي اختصارٌ لكلمة «دوبامين»، و أنّنا ندمنها بعد مرور وقت معين داخل هذه الغرفة، وكلما

زاد عدد المدمنين زاد البريق في أعين مصمّم المكان، وزادت لمعة اللون الأزرق.

بعد فترة قررتُ أن أكون صلب الإرادة والخروج من هذا المكان، أريد العودة إلى المعرفة الحقيقية مرة أخرى، أريد أن أكون ضد هذا التيار الذي يسحبُ الجميع داخله، لا أريد التعوّد على تلك الحقن الخادعة ذات النشوة المؤقتة.

لا أريد أن أكون مدمنًا ولا جائعًا ونهِمًا لها، حاولتُ التحامل على جسدي والخروج من المكان، ونجحت خطتي بعد سنوات.. أخيرًا سأعرف ما هو هذا المكان.. أخيرًا سأعرف طبيعته التي أخفوها عني وأدخلوني دون إرادتي في البداية وأغمضوا عيني بغطاء الأعين الأزرق.

خرجتُ أهرولُ مسرعًا، ورأيت لافتة كبرى على المبنى بالخارج..

«أهلًا بكم في التواصل الاجتماعي.. مقر حقن الدوبامين».

خرجت مُنهَكًا ومدمنًا، وتتساقط من عمري الساعات والدقائق والأيام.. و أقسمتُ حينها أن لن أرجِعَ هنا مرة أخرى!

ومضات مرعبة كما دفقات البركان في رأسي، منذ استيقظتُ هذا الصباح ولا أجد غير الذكريات المرعبة، وكأنني أقتلُ عدة نساء بأسلحة مختلفة وبطرق متعددة.

لا يوجد حصار أصعب من حصار الذكريات.. سجن مليء بالأسوار المتحركة، تسجنُك أينما كنت، وتجعل من كل براح ضيق، ومن كل سماء صافية صيحات رعد وعتمة ليل غاشم.

دماء على وجهي ولا أعرف مصدرها، هرولت في الشقة كما المجنون أحاول التخلص منها وإيجاد حقيقة أخرى لنفسي في مرايا المنزل، لا أصدّق أنّني قاتل كما أرى في بعض تخيلاتي وبعض كوابيسي وأنا نائم.

هذا الفصل من حياتي غائب تمامًا، لا أعرف لماذا لا أتذكر ما فعلت؟! هل أحاول نسيان ما فعلت عمدًا بسبب عظم الفعل والذنب الذي أشعر به؟!

أعرف وأتذكر مهنتي واسمي، ولكن لا أتذكر ما فعلت بالأمس، ولا أتذكر أية جريمة قتل بها عكس ما توحي الدماء والتخيلات والصور التي وجدتُها في مكتبي الصغير.

اسمي « نضال» وأعمل كمهندس للبترول.. هذا ما أتذكره من حياتي، وأحاول أن أتناسى الجزء الباقي الخاص بقتلي المتسلسل.. يا لهُ من كابوس! هل أنا حقًّا قاتل متسلسل مجنون؟

وجدتُ عددًا من الصور لنساء مكبلة بالأصفاد وبعض الرجال أيضًا الذين تسيل منهم الدماء.. صور فوتوغرافية احترافية، يبدو أنّني من قُمتُ بالتقاطها من قبل واحتفظتُ بها هنا في المكتب.

دخلت إلى الحمام مسرعًا، ووجدت أثرًا لنقطة دماء صغيرة لا تكاد تظهر، هل أقتل الضحايا هنا في الحمام؟ هل أقوم بتطهير المكان سريعًا كما يفعل القتلة المحترفون؟

أحتاج إلى مادة "لومينول" التي تستخدم في الطب الشرعي وتكشف كل آثار الدماء، حتى لو قمتُ أنا بمحاولة تنظيفها باحترافية، ولكن كيف أجد هذه المادة؟! شبه محال أن أجدها وأحصل عليها بسهولة.

رأيتها في وثائقيات الجريمة من قبل وكيف يستخدمها الأطباء الشرعيون في كشف أثر الدماء بعد الظهور بشكل متوهج.

يبدو أنّني كنت أتابع كل ما يخص الجريمة من قبل، أعيش في كابوس حقيقي ولا أعرف كيفية الخروج منه الآن.

أحاول أن أهرب من حالتي، و أقول لنفسي إن للقاتل المتسلسل علامات، وليس بي إحدى هذه العلامات والصفات.

المرض العقلي أو عدم الشعور بالذنب على سبيل المثال، ولكنني أشعرُ بخوفٍ وذنب كبير، ربما لستُ قاتلًا متسلسِلًا، وربما هي ذكريات حزينة وأوهام تحاصرني وتقضّ مضجعي.

ولكن ماذا عن الصور؟ وكيف وصلت إلى منزلي إذا لم أكن قاتلًا محترفًا يقوم بتصوير جرائمه ويفتخر بها؟ ولماذا يفخر القتلة دائمًا بجرائمهم؟

مسحت كل آثار الدماء من وجهي، وقمت بتغيير ملابسي لمحاولة البحث عن إجابة، وجدتُ هاتفي بجواري.. فهل سأحاول الوصول من خلاله عن إجابة شافية تخرجُنِي من شقائي؟

ولكن كيف أحصل على إجابة؟ هل سأسأل أفراد عائلتي أو أصدقائي إن كانوا يعرفون هل أنا قاتل متسلسل أم لا؟ كيف سأعرف الحقيقة التي لا تظهر إلا في خيالي؟

سأجلس وأحاول التذكر، ولكن كل ما أتذكّره مجموعة ومضات مفزعة أشبه بجهاز إنعاش القلب، أتذكّر نساء تصرخ ورجلًا يقوم بخلع ملابسه، و أقوم بإطفاء السجّائر المشتعلة في جسده و أقوم باقتلاع أظافره!

لا بُدّ أن أخرج من هنا وأحاول البحث عن إجابة واضحة عن الماضي الخاص بي.

أتذكّر كل شيء من حولي، المنزل والشارع والجيران، ولكني قمتُ بمحو الجزء الذي لا أريد تذكره من عقلي، وهو الجزء الخاص بالقتل، وكأنه ملف في جهاز وقمت بمسحه فقط دون غيره.

أعرف جارتي في العمارة المجاورة.. الدجّالة الشهيرة التي تقرأ الكف وتتطلع على المستقبل كما تزعم، أنا فقط مَن كنتُ دائمًا يقول عليها «الدجالة»، رغم أن الكثيرِين يصدّقُونها ويذهبون إليها بحثًا عن معرفة المستقبل.

أنا في أمس الحاجة للوصول إلى الحقيقة، حتى ولو عن طريق دجالة مثل هذه ربما تعرف عني شيئًا من كفي أو تعرف حقيقتي.

ذهبتُ إلى منزلها وطرقت الباب حتى فتحَت، وقالت في سخرية:

– أستاذ نضال شخصيًا؟ معقول تيجي بنفسك؟! من امتَى بتصدق في كلامي؟ ده انت عمرك ما قُولت عني كلمة حلوة.

قلتُ في عدم ارتياح واضح:

- بصي.. من غير كلام كتير أنا عايزك تقرِيلي الكف أو تفتحي الكوتشينة بتاعتك وكل الكلام الفارغ ده، يمكن أطلَع منك بمعلومة عن حاجة عايز أفتكرها ضروري.

- طيب طالما هو كلام فارغ.. جايلي ليه بقى الساعة دي؟

- الغرقان بيتعلّق بقشاية، يمكن أعرَف منك أي معلومة عن حاجة ضرورية وفترة لازم أعرفها في حياتي.

- والحاجة دي تخص إيه يعني؟ حاجة ضايعة منك؟

- هَقُولِّك بعد ما تبصي في الكف أو تقريلي الكروت.

بعد فترة من قراءتها لكفِّي واستخدام أوراق التاروت معي لأول مرة، نظرَت إلى وجهي برعب وفزع، وحاولت أن تستجمع قواها و اتزانها دون جدوى.

حاولتُ الهرب من أمامي بسرعة، يبدو أنّها اكتشفَت حقيقة مفزعة عن حياتي.. لا إراديًّا وجدتُ يدي تمسك زجاجة على المنضدة وكسرتها في عنف واضح وتعمُّد للإيذاء، وشققت عروق رقبتها البارزة.

الغريب أن ما أزعجني ليس مشهد الماء التي ثارت وهاجت من رقبتها، ولكن ما أزعجني هو احترافي الرهيب وسرعة التنفيذ والدقة المتناهية في القتل، لا أعرف حتى لماذا قتلتها! ولكن ربما خِفتُ من إفشائها لسرِّي في المنطقة أو الثرثرة المعتادة منها لكل السكان عن ما عرفَتْه عني و أثار فزعها.

إذًا من الواضح أنّني قاتل محترف، أقتل بكل الأدوات المتاحة، ولكن أين أقوم بدفنِ الجثث؟ وكيف سأعرف؟ هل أبلغ الشرطة عن نفسي؟

قمتُ بالهرب مسرعًا من شقة العرافة الغارقة في دمائها ومحاولة التأكد من الشارع، وأن لا أحد يراني أو رآني أثناء الدخول إلى شقتها.

وجدتُ هاتفي يهتز، وأجبتُ عليه مسرعًا.. إنه صديقي حسام، قال لي:

- انت فين يا عم؟ ما جِيتش الشغل ليه النهاردة؟

- معلش كان عندي ظروف صعبة النهاردة، واليوم صعب جدًّا.

- الله يكون في عونك يا حبيبي.. خير إيه اللي حصل؟

- بص يا حسام.. عايز أسألك على حاجة ضروري.

- اتفضل.. تحت أمرك، عايز تسأل عن إيه بالظبط؟

- تعرف الكاميرا بتاعتي فين؟

وجدتُ نفسي أسأله عن واحدة من أدوات جرائمي، لم أجد «الكاميرا» الخاصة بي في منزلي.. والتي أقوم باستخدامها في التقاط صور للضحايا.

أحاول الوصول لأية معلومة حتى ولو بالصدفة، ردّ عليّ وقال:

– كاميرا بتاعة إيه؟ انت بتصوّر كمان؟ واضح إن عندك هوايات خفية يا سيدي.

إذًا لم أُعلِن لأحد عن آلة التصوير ولا يعرفون حتى أنني أقوم بالتصوير، رغم مئات الصور للضحايا في مكتبي، إذًا كل شيء في حياتي خاص بالقتل بمثابة ملف سرّي لا يعرف عنه حتى أقرب أصدقائي.

أنا موظف بالنهار ووحش كاسر بالليل، أقوم باصطياد الضحايا وتصويرهم وذبحهم.. من أنا؟! وكيف وصلتُ لهذا الجنون؟ ولماذا أقوم بهذه الأفعال؟

أحاول أن أعيش بصورة طبيعية، سأذهب للعمل و أقابل أصدقائي، وأحاول الهرب من هذا الكابوس بنسيانه تمامًا وإحراق الصور وعدم البحث والنَّبْش في الماضي الأسود.

مر أسبوع و أنا أعيش حياتي الطبيعية، وأهرب من الماضي ولا أريد تذكره، قمتُ بزيارات لعائلتي وواظبتُ على الذهاب لعملي والخروج من أصدقائي.

و أثناء إحدى السهرات مع أصدقائي رأيتُ أحد الجالسين في المطعم ينظر إليّ بشدة، حاولتُ أن أتتبّعه للخارج ولم أجِده، حتى وجدتُه فجأة يربُت على كتفي قائلًا:

– أخبار الصور إيه يا زعيم؟

ابتلعت ريقي في فزع، وقلت له:

- صور؟! صور إيه مش فاهم؟ انت عارفني؟

- إيه ده احنا هَنستَعْبَط؟ فين الصور الجديدة اللي طلبتها منك؟

- طيب فكرني إيه هي الصور المطلوبة؟

- انت ناسي شغلك في الدارك ويب؟

بدأت أفهم ما يقول، أنا أعمل لدى مجموعة مجانين وأشخاص تعشق العنف والقتل، أقوم بتصوير الضحايا وبيع الصور.

إذًا كل الصور التي أحرقتُها تساوي ثروة هائلة، لا أظن أنه سيرحمني إذا أبلغتُه أنّي قمت بإحراقها والتخلص منها.

قلت له و أنا أرتعد:

- طيب ادِّيني فرصة، لسّه بخلص الشغل الجديد.

- فرصة قَدّ إيه يعني؟ انت بقالَك فترة مش بتتصل بيّا، انت بتهرب من الشغل ولا إيه؟

- صدّقنِي مرّيت بمشاكل الفترة الأخيرة، لكن أوعِدَك هسلّمَك كل حاجة في وقتها.

- قُدّامَك أسبوع كمان.. أنا لمِّيت الصور من باقي الرجالة، انت اللي فاضل.. ولّا عايز الباشا الكبير يزعل؟

يبدو أنّني تورطتُ في تنظيم كبير للقتلة، أنا لست مميزًا إذًا في وسط مجموعة المختلين الذين يقومون بتصوير الجثث وبيعها.

لا يوجد حل قد ينقذُنِي من العودة للماضي الإجرامي غير الهروب، لا بُدّ أن أهرب من كل شيء وأي شيء قد يعيدُني لما أريد التطهر منه، ويريد عقلي أن ينساه ويمحُوه من ذاكرتي.

قررتُ أن أهرب بعيدًا.. دون أن أعلم وجهتي، قررتُ الرحيل بعيدًا عن الجثث التي لا أعرف حتى مكانها و أين قمت بدفنها، الهروب من عملي وأسرتي وأصدقائي وكل ما يربطني بمجتمعي، ربما لا يعرفون لماذا أهرب! ولكن القرار أصبح حتميًّا من أجل أن أعود لإنسانيتي مرة أخرى، من أجل أن لا أجد بقعة دم أخرى على وجهي في الصباح من بقايا الأجساد البشرية.

أعرف أن الهروب صعب من المنظمة الغريبة والغامضة التي أتبعها، سيتعقّبونَني أينما ذهبتُ، وسيجدونني مهما كانت خطتي وطريقي وتوْبَتِي من الطريق الشيطاني.

وأنا اليوم بعد عدة سنوات، هربتُ وأعيشُ مع طفل صغير أرعاه، طفل يتيم اخترتُ أن أقوم بتحسين حياته بما تبقَّى لي في حسابي البنكي وأموالي التي قمتُ بسحبها قبل قرار الرحيل.

سأغيّر من مصيره مثلما غيرتُ من مصيري واسمي وعملي وكل شيء في حياتي، في داخل كل منا الشرير والطيب.. الملاك والشيطان، ربما لا تتخيّلون قاتلًا متسلسلًا يرعى طفلًا يتيمًا، ولكنه طريق جديد اختاره لي القدر، واختار عقلي نسيان أحداث مؤلمة في عمري، وكأنني كنت أفعلها بغير إرادَتِي.

ربما لستُ قاتلًا في النهاية.. ربما أنا ملاك في الأصل وقد ضَلّ طريقه إلى جهنم.

ربما ظننتُم أن كاتب هذه القصة هو قاتل متسلسل، لا! لم يكن يومًا كذلك، ولكنه قاتل بالفعل.

من أنا؟ أنا «شوقي عبد السلام».. منذ طفولتي أعيش مع هذا الكاتب الذي قام برعايتي بعد وفاة أبي.

أبي هو صديق «نضال» منذ الطفولة.. نضال الكاتب الذي اختار أن يكون اسمه كقاتل متسلسل في أحدث أعماله القصصية.

اختار أن يصوّر نفسه كقاتل متسلسل في القصة؛ لأنه بالفعل قتل أبي في لحظة غضب.. قتل صديقَه المقرب وقام برعايتي بعدها حتى كبُرت.

أصبحَت القضية ضد مجهول، ولم يعرف أحد بقتله لصديقه، ولكنه اعترف لي بعد أن نضجتُ وطلب مني المغفرة، لم أغفِر له وهربتُ بعيدًا.

صوّر نفسه كقاتل متسلسل يريد عقلُه أن ينسى ماضيه، مثلما هو في الحقيقة تمامًا يريد المغفرة مني، ويريد الصفح عن ما فعل لصديقه.

الجزء الأكبر من القصة قام فيه بتصوير نفسه كما الوحش القاتل، والجزء الأصغر ذكَر فيه أنه قام برعايتي.

قام بذلك بسبب عظَم الشعور بالذنب، قتل صديقه المقرب كأنه قاتلٌ متسلسلٌ، كان يقول لي أثناء كتابته لهذه القصة القصيرة واعترافه لي بقتل أبي: «بقعةُ الدم أراها كل يوم على وجهي، ولا أستطيع التطهّر منها سوى بالكتابة.. أبحث في كل يوم عن نفسي في شخصية جديدة وقصة جديدة؛ لعلِّي أنسى ما اقترفَت يداي، ربما تكون الكتابة هي طريق هروبي من الجحيم على الجنة.. ومن شيطانية نفسي إلى طريق الغفران والرحمة«.

«الفستان لن يبقَى وحيدًا»

لا يتواجد «عم حسين» في هذا الشارع إلا ومعه الفستان، كل الناس مِن حوله هجرته حتى أصبح بلا صديق ولا حول ولا قوة.

كان الجميع يعتقدون أنه فقد عقله، كان دائمًا ما يرافق الفستان كأنه صديقه الوحيد، بل وكان يحدّثُه أحيانًا ويعتقد أنه يسمع منه الرد.

يحمله بين يديه كأنه كفنٌ أبيض، لا يهتم بنظرات الناس، ولكن يمد الفستان بيديه إلى الأمام في صورة أشبه بتقديم القرابين، ولكنه لا ينتظرُ النتيجة ولا ينتظرُ البركة بعد تقديم القرابين، كل ما ينالُه هو قسط وافِر من السخرية والضحك من كل المارّة والعابرِين.

بعد أسبوعٍ لاحظتُ أنه يحمل فستانًا آخر، لون آخر يجالسه ويحدّثه ويتجاذب معه أطراف الحديث والشجن والجنون والحزن، كانت الدمعات تُزاحِم عينَيه والألم يعتصر القلب.

لم أعرف اسمه إلا بعد عدة أشهر، كنتُ في البداية أراقِبه من بعيد، ولكن الفضول كاد يقتلني لأعرف المزيد عن هذا الرجل الذي يبدو أنه ليس من هذه المنطقة ولا البلدة، يبدو أنه وافدٌ من إحدى المحافظات الأخرى خارج القاهرة.

راقبتُه في البداية ولاحظتُ تنمُّرَ البعض منه تدريجيًّا بالقول في البداية، ثم وصلوا إلى الإِيذَاء الجسدي، ولكني تدخَّلتُ في هذه اللحظة وحذّرتُ مجموعة الشباب المتنمّرِين من محاولة المساس به مرة أخرى.

لم يقولوا لي سوى جملة واحدة: «تلاقيك مجنون زيه بالظبط"!

ثم تركوني ورحلوا وهم يتغامزون ويضحكون بصوتهم الأجش الغاضب.

جلستُ بجواره محاولًا فتح الحوار معَه بلا جدوى في بداية الأمر، كنتُ أشعر بالشفقة عليه، وأعرف جيدًا أن ما مر به ليس هيّنًا، خصوصًا أن المجروحين يعرفون بعضهم جيدًا؛ فقدتُ ابنتي في حادث أليم منذ عدة سنوات ولم أتجاوز الألم بعد، لا أحد يتجاوز الألم، ولكن نحاول التعايش معه، نحاول أن نعقِدَ معه هدنة أحيانًا، ونوقف أوزار الحرب التي يعلنها علينا في غارات ليليّة على هيئة كوابيس مفزعة.

أعرف أن هذا الرجل يخفي سرًّا علنيًّا، ما أغرب هذه الجملة «سِرٌّ علنِيّ»! كيف يكون سرًّا وهو متاح للعلن؟ هذا هو الألم، مهما حاولتَ أن تخفيه يظهَر على ملامحك وتنضَحُ به مسامك وعروقك.

بعد فترة نظر إليّ قائلًا في حسرة:

– أنا مش مجنون يا أستاذ.. أنا حاسِس إني بدخل في نوبة غريبة، لكن صدقني مش مجنون.

تفاجأت بحديثه، وقلت له:

– حاسِس بيك وعارف إن اللي بتعمله ده على قَدّ ما هو غريب لكن عارف إنه وراه ألم كبير.

قال لي وهو يحتضن الفستان:

- مش قادر أفارِقها ولا الحزن راضِي يفارقني.

- ربنا يصبّرك.. زوجتك ولا بنتك؟

- زوجتي اللي كانت حامل في بنت، فقدتها في حادث أليم وأنا سايِق العربية، الإحساس بالذنب لوحدُه ألم مضاعف ما بالك بألم الفراق!

حاسِس إني السبب في موتها.. ممكن يكون السواق اللي خبَطْنا كان متهوّر، لكن مش قادر أفارق الإحساس بالذنب.

- وحِّد الله بس، دي أعمار والحوادث بتحصل في لحظة، أنا أكتر واحد حاسس بيك، من كام سنة فقَدت بنتي ولسَّه مش قادر أتجاوز الحزن والألم، لكن إيه حكاية الفساتين دي؟ كانت بتاعتْها؟ صح؟

- كانت بتحلم باليوم اللي هتخَلِّف فيه بنتنا وتنوّرلِنا الدنيا، وكانت عاوزَة تعمل فستانين.. واحد ليها وواحد للبنت، قولتلها لكن البنت هاتعملِيلها فستان ليه من دلوقتي؟ قالت عايزَة أهاديها بيه أول ما تيجي للدنيا و أقولّها جبتِلك فستان فرحك في أول يوم ليكي في الدنيا، كانت سعيدة قوي بيها، وبتعد الأيام عشان تشوف بنتها بين إيديها.

عرفتُ أنه من عائلة كبيرة في محافظة البحيرة، لكنه هامَ على وجهه بعد الحادث بفترة، وذهب إلى عدة مُدنٍ محاولًا الهروب من نفسه ومن الحزن، يحاول غسْلَ همومه في كل الشوارع وكل المدن، ولكن تعتصرُه قبضة الفراق وتعتصِر ضلوعه، كأن من فقدوا أحبّائهم قد كُتِبَت لهم شهادة ميلاد جديدة، شهادة ميلاد مكتوب فيها «محل الإقامة: دموع العين»!

قدمتُ له يد المساعدة، قلت له أن يقيم معي في منزلي مؤقّتًا بدلًا من سجن نظرات الناس في الشارع، لم يو افق في البداية وكان يبكي بحرارة ويقول:

– مش عايز أقعد جوّه سجن البيوت تاني.. سِيبني للشارع وللمطر ممكن ينسُّوني همِّي.

في النهاية أتى معي في منزلي الذي أقطن به وحيدًا بعد طلاقي من زوجتي منذ فترة، وبعد وفاة ابنتي.

كان ينام على الأريكة وهو يحتضن الفستان الذي أصبح مُتهالكًا تدريجيًّا دون رعاية أو تنظيف حتى تغيّر لونه.

كان يخرج خلسة من الشقة وينزل إلى الشارع، دافعتُ عنه عدة مرات من المتنمّرِين والمتصيدين، حاولتُ أن أحافظ على بكارة حزنِه وأصالَةِ نبضه الخافت.

كنت أشعر مثله تمامًا.. الحزن لم يفارقني أبدًا منذ وفاة ابنتي في عز الشباب والصبا، قررتُ بعدها أن أتولَّى رعاية إحدى الفتيات في دار أيتام، أحاولُ أن أكون أبًا لها وأرعاها كما حافظتُ على ابنتي وأحببتها.

أذهبُ إليها و أتكفّل بها وبمصاريف تعليمها وملابسها وكل جوانب حياتها، أحاولُ أن أعوّضَها وأعوّض نفسي في نفس الوقت، تحاول أن تعوضَني عن ابنتي وأحاول أن أحُلّ محل أبيها.

خرج حسين في إحدى المرات ورجع إلى المنزل حزينًا مهمومًا ومعه الفستان لا يفارقه، قلت له متسائِلًا:

- إيه اللي حصل يا حسين؟ فيه إيه و إيه الدم ده؟ انت اتخانِقْت؟

- أهلي شافوني في الشارع.. عرفوا مكاني وجُم من البحيرة وقالولي إني فضَحتُهم.

- عرفوا مكانك من مين؟

- ناس بلّغِتهم وقالتْلهم الراجل اتجنّن وشايل فستان على إيده، حد من معارفي شغّال في القاهرة بلّغْهم في البحيرة بالشارع اللي دايمًا بقعد فيه.

- اتخانِقت معاهم؟

- أهانوني وما استحْمِلْتِش الإهانة.. أنا مش مجنون والله مش مجنون، أنا حزين.. حزين جدًا.

لم أعرف كيف أساعده بشكل فعّال، هل أحاول أن أصل لأهله ونحاول أن نعيد الأمور إلى نصابها؟ هل أعرضُه على أحد الأطباء النفسيين؟ ولكنّي حاولت من فترة فتح هذا الموضوع وقابلَهُ بالرفض القاطع.

حاولتُ أن أرعاه لفترة حتى يجد حلًّا أو يتجاوز المحنة، حاولتُ أن أقدّم له دائمًا يد المساعدة، ولكن مع مرور الوقت جفَّت دموعه وذبل عوده، حتى وجدته في إحدى الأيام وقد انقطَعَت أنفاسه وهو نائم بجوار الفستان.

وصلتُ إلى أهله وقصصتُ لهم كل شيء عنه وعن حالته في الفترة الأخيرة التي تركهم فيها، وكيف أثرت فيه وفاة زوجته بشكل قاسٍ؟

أقاموا العزاء الكبير في مدينته وكان الحزن يظهر علي وجه معارفه وأصدقائه، كانوا يعرفون جيدًا كيف عاش سعيدًا مع زوجته؟ وكيف كانت ابتسامته تملأ الدنيا حتى تبدّلَت الأحوال وضربَته إحدى عواصف القدَر وزلزلت أركانه.

قتله الألم والإحساس بالذنب معًا، ويا لهما من قتَلَة.

كنت أحتفظ بالفستان.. لم يسألوا عنه؛ فاحتفظت به على سبيل الذكرى وتكريمًا لأيام قضيتها مع هذا الرجل الحزين.

أخذتُ الفستان إلى إحدى المغاسل القريبة، وأعادوه إلى حالته كأنه فستانٌ جديد.

لم أفكر لوقت طويل فيما أفعله به، كنت قد قرّرتُ أن أهديه إلى «سارة»، الفتاة التي أرعاها وأعتبرُها كابنتي.

ذهبتُ إلى الدار حاملًا الفستان معي، استقبلَتْني بحفاوة كبرى، وقالت لي أجمل جملة أنتظرُها منها دائمًا:

- وحشتني يا بابا.

كنت غائبًا عنها منذ أن دخل هذا الرجل إلى حياتي، وحاولتُ أن أخفّف من ألمه، ولكنه فارق الحياة.

قررتُ منذ هذا الوقت أن أجعل هذا الفستان ينبض بالحياة، أن ينبض بالفرحة مرة أخرى بعد أن غرق بالدموع وطعم الشوارع وصوت الأنين.

احتضنَت الفستان بفرحة عارمة، وقالت لي:

- أنا مش عارفة أشكرَك ازّاي.. انتَ أجمل أب في الدنيا.

فكرتُ و أنا أرى نظرتها وسعادتها أن ابنتي تبتسم، وأنّ حسين يبتسم هو الآخر بعد موته بعد أن وهب هذا الفستان الفرحة إلى سارة، أصبح الفستان واهبًا للحب والفرحة بعد أن كان غارقًا في الحسرة والدموع.

أخرجتُ الفستان من طعن الألم إلى غرس المحبة، وكأني أخرجتُ نفسي من سجنها ولو للحظات، وشعرتُ بأن ابنتي أمام عيني تفرح بهديتي.

ربما وضع الله هذا الرجل في طريقي ليغيّر شيئًا في نفسي، أراني الله كيف تخرجُ لحظة فرحة من الحزن.

وكيف أستطيع أن أحصل على فستان من الدموع؛ فأقوم بتفصيله على مقاس الفرحة والابتسامة.

سافر الفستان عدة مدن وشوارع وعاش أهوالًا ووعودًا وأمنيات.. ولكنه لن يبقى وحيدًا.

المزاد

أينما ذهبتُ أشعر بها تلاحقني، لا أعرف ماذا يحدث لي! هذه اللوحة الملعونة التي تتلوَّى تفاصيلها كأذرع الأخطبوط، وتحتضِنُ كل مساحات انتباهي.

منذ اشتريت هذا المتجر لم تأثِر بي أية لوحة مثلما تفعل هذه اللوحة تحديدًا، أتذكّر أول يوم لي كتاجرِ أعمال فنية وخبير في المزادات، كنتُ أعلّق اللوحات بنفسي على الجدران قبل أن يكْتظّ المكان بالعمال الذين يساعدونني في تنظيم الأمور كلها بالمتجر.

كانت كل لوحة تجذب انتباهي بجمالها وتفاصيلها، وأظل أتأمل لساعاتٍ بحكم خبرتي في عالم اللوحات الفنية، ولكن هذه اللوحة تحديدًا تأسِرُني، تستعبدُني، ترسمُ كل تفاصيل يومي ولا أستطيع الخروج من عالمها.

أكاد أُجزِم أنها تنظر إليّ وكأنها ترى أعمق مكان في نفسي وتُعرِّيني وتكشِف تفاصيلي، تكشف فنائي أمام دَيمُومتها وخلودها.

هذه المرأة القابعة في اللوحة كملكةٍ متوّجة تشبه «يارا»، حب حياتي وخط الكف في يدي، والر اقصة الأولى على شر ايِيني.

تركَتْني يارا بدون أي سبب واضح منذ سنوات، كل شيء يتغيّر فجأة، كانت المخلصة المحبة وتحوَلت إلى المتذمرة الهاربة الغاضبة!

لا يوجد سبب واضح سوى المال، عرفتُ أنها سافرَت للخارج وتزوجت من رجل ميسور الحال فجأة، لا أعرِف حتى متى تعرّفَت عليه، ولكن من

الواضح أنها خانتني في فترة الحب التي عِشْناها، وكانت تقترب منه تدريجيًّا.

دمر المال كل شيء، لم أكن أتخيل يارا في هذا الوضع، ولم يكن يخطر على بالي أن تتركني من أجل حفنة دولارات، كانت الوعود بيننا أقوى من أيّ رحيل وأيّ تفكير في الهجر والفراق.

قضيتُ سنوات بدونها كأنني في اختبارات تحمُّل قاسية، كأن قلبي يتعرض لاختبارات المشي على الجمر والجرْي على الزجاج المكسور.

قضيتُ عمري محاولًا نسيانها دون جدوى، حتى طبيبي النفسي أصابَه اليأس مني ومن حالتي، حاول معي كثيرًا، ولكن علاجي ليس في الجلسات، ولكن علاجي معها وبين عينَيْها.

في أول يوم دخلَت هذه اللوحة إلى المتجر أصابني الفزع، تشبه يارا بكل تفاصيلها، وكأنها مَن أرسلَت هذه اللوحة عمدًا كي تزيد وجَعِي وآلام الفراق.

كانت اللوحة لفنّانٍ مصريّ شهير، تردَدتُّ في البداية هل أشتريها أم لا؟ هل أزيّن بها المتجر أم أرفضها تمامًا؟! ولكني اشتريتُها في النهاية.

قضيتُ الأيام محاولًا عدم النظر إلى اللوحة حتى يأتي اليوم الذي أبيعها فيه، فكرُت في الاحتفاظ باللوحة لنفسي، ولكني كنتُ أخافُ منها ومن تأثيرها على قلبي وعقلي.

كانت هناك فكرتان تتصارعان داخلي منذ رأيت هذه اللوحة، ربما أشعر بالجنون الكامل حينما أتأمّل هذه الأفكار.. كانت الفكرة الأولى إن احتفظَت باللوحة مدة طويلة ثم فارقتها؛ فربما أشعر بألم فراق جديد وتزيد حالتي سوءًا.

وكانت الفكرة الثانية إن بِعتُ اللوحة في المزاد فربّما أشعر ببعض الخلاص، أشعر أنني بعتُها كما باعتني من قبل، إن بعتُ اللوحة فكأنني بعتُ يارا!

ظلَّت هذه الأفكار تصارع عقلي، هل ستصعقني اللوحة إن بعتُها أم سأشعر بانتصار كبير عليها؟

كان العمال يلاحظون التغيّر الواضح على حالتي، ابتسامتي كانت مفقودة منذ دخلَت هذه اللوحة، كنت أجلس ساعات طويلة للتأمل، أغيّر وضعيتها على الجدران أحيانًا كي لا تنظر لي، ثم أعيد وضعها أمامي مباشرة كي أنظر إليها.

ظنُّوا أنّني قد جُننتُ، وكانوا يعدُّون الأيام كي أتخلص من هذه اللوحة، كانوا ينتظرون أن أُدخِلها أحد المزادات وأعرضها لأعلى سعر.

جاء إليّ ذات يوم كبير العمال و أقدمُهم في المكان، وقال لي:

- شايفك مشغول يا أستاذ فضل وعقلك مش معانا من ساعة اللوحة دي ما دخلت المحل!

قلتُ له محاولًا عدم النظر إلى اللوحة:

- ماتقلقش ياعم جاد، أنا بس متوتر شوية اليومين دول، لكن كل حاجة هَترْجَع زي زمان يا راجل يا طيب.

- ليه اللوحة دي طوّلِت عندنا؟ مش ناوي تبيعها زي غيرها ولّا هَتحْتَفِظ بيها؟ هي لوحة عليها القيمة فعلًا، بس ياما بِعت لوحات أفخم منها.. اشمعنَى دي؟

- بتفكّرْني بحاجة قديمة كده وذكريات يا عم جاد، ذكريات مش عارف هتخَلَّص منها ولا هتِفضَل معايا طول العمر!

كان جاد هو أقدم العمال وأمهَرهم، علّمتُه كل شيء منذ فترة طويلة، وزادت خبرته مع الوقت في تقييم اللوحات ومعرفة قيمتها وثمنها من مجرد نظرة فاحصة لها.

كان يعرف جيدًا أن هذه اللوحة قيمة وغالية الثمن، ولكن لم يعرف لماذا أحتفظ بها كل هذه المدة، لم يعرف الصراع الذي يدور بداخلي، ولم يعرف يومًا قصة يارا ومحاصرتها لي.

كنت أحيانًا أفكر في أفكار غريبة، أفكر بأن الله خلق الحب مثلما خلق المرض، وسيلة تعذيب وليس وسيلة راحة، دمعة وليس فرحة، الحب عذاب ولم يكن يومًا طمأنينة.

الفراق يصبح دائمًا النتيجة النهائية للحب، كلما أحببنا شيئًا فارقنا في النهاية؛ فما الجدوى من كل هذه؟ يصبح الحب في النهاية كالمرايا التي تحيط بنا داخل بيت الرعب، تنظر إلى ألف نسخة من نفسِكَ وتحاول أن تكتَشِف مَن منهم لم يُصِبْه الجرح، تحاول أن تستلهم منه القوة، تبحثُ عن نسختك الأقوى، ولكن العشق دمّرَ أقوى ما فيك وشرَخ كل المرايا؛ ليضاعِف النسخ التي تراها من نفسك! ويزيد حيرتك ويتوغّل داخل جراحك كالمادة الحارقة.

قررتُ في أحد الأيام أن أبيع اللوحة، قررتُ أن أتغلّب على ضعفي، نصحني طبيبي في إحدى الجلسات بالابتعاد عنها ومحاولة التغلب عليها.

أمرتُ العمال بتغليف اللوحة استعدادًا لبيعها في المزاد، فرح عم جاد كثيرًا بهذا الخبر، واعتقَدَ أنها النهاية و أنني سأستعيد تركيزي، وسيتخلّص المكان أخيرًا من تأثير هذه اللوحة الملعونة مثلما كان يسميها.

ثم ذهبتُ في إحدى الليالي إلى المتجر بعد رحيل العمال، ووضعتُ اللوحة مرة أخرى على الجدار، وأصابهم اليأس وظنوا أنّها النهاية، وأن هذه اللوحة لن تفارق المكان أبدًا.

سألني عم جاد متعجّبًا:

– علّقت اللوحة تاني؟! مش ناوي تبيعها أبدًا؟! دي هَتجِيبْلَك تمن حلو قوي، طول عمرك فنان وتاجر شاطر، ليه بس بتعمل كده في نفسك وتعذّب نفسك بيها؟

لم أجبه على السؤال، نظرتُ إليه مبتسمًا وخرجتُ إلى الشارع محاولًا الهروب من اللوحة ولو قليلًا، ومحاولًا الهروب من تساؤلات العمال في المتجر.

سنوات وأنا أضع اللوحة وأجهّزها للبيع، ثم أعيدها مرة أخرى وأتأمل تفاصيلها.

حتى جاءَت لحظة الحسم وذهبتُ إلى قاعة المزادات وجهزت كل شيء، زادت قيمة اللوحة مع الوقت، وأصبحَت أقدم لوحة في مكان عملي، وزاد حديث المهتمين بالأعمال الفنية عن اللوحة.

لأول مرة تفارق اللوحة فعلًا هذا المكان، أرسلتُها أخيرًا إلى قاعة المزادات وحان وقت البيع وحان وقت شفائي منها، هل تغلبت قوتي على ضعفي أخيرًا؟ هل سأتخلّص من أسر يارا وجبروتها وسطوتها على تفكيري وإحساسي؟ هل سأنجح في بيعها مثلما باعتني وهجرتني؟ كان هذا ما يشغل تفكيري وأنا أجلسُ في قاعة المزادات وأنتظر التجار والمهتمِّين بهذه اللوحة الثمينة.

بدأ المزاد وبدأت الأسعار تزيد تدريجيًّا، كلما زاد السعر كلما شعرتُ بالتحرر والخلاص من اللوحة ومن الذكرى الحزينة والمؤلمة.

ولكن دخلتُ فجأة فيما يشبه الغيبوبة القصيرة، لا أعرف هل هو حلم اليقظة أم كابوس غيّر كل شيء فجأة وبدون سابق إنذار!

جلست أتخيّل مزادًا بيني وبين الرجل الذي تزوج يارا، كانت تجلس في مكان اللوحة وكان الصراع يشتد بيني وبينه، كان يزيد الثمن تدريجيًّا و أنا مكتوف الأيدي ومعصوب العينين، مزاد لا طاقة لي به ولا أستطيع الهروب منه.

كان يزيد السعر في كل ثانية و أنا أصرخ في مكاني ولا أستطيع الحركة، حتى استيقظت فجأة و أنا أصرخ في قاعة المزاد.

استيقظتُ من هذه التخيلات ومن هذا الكابوس المفاجئ الذي هاجمني في القاعة، صرختُ بصوتٍ عالٍ أدهش مَن حولي، وقلت:

– 200 ألف جنيه

أصابت الدهشة الجميع، ما الذي يحدث؟! لم يتخيلوا أن يُزَايد صاحب اللوحة وصاحب المتجر على لوحته التي عرضها للبيع.

سألوا أنفسهم «لماذا لم أحتفظ بها من البداية؟ لماذا أعرض اللوحة للبيع ثم أحاول شراءَها مرة أخرى؟".

كانت كل صرخة لي بسعر أعلى أحاول فيها الانتصار، أحاول أن أنتصِرَ على الرجل الذي هزمني والذي سرق مني يارا وسرق منّي أحلامي.

لم أكن أشعر أني في قاعة المزادات، ولكن في مكان تخيلي أُزايِد فيه وأحاول الانتصار على هجر يارا لي وأموال زوجها الملعون.

صحْتُ عدة مرات وسط دهشة الحضور، وكان أحد رجال الأعمال يزيد الثمن أمامي ويعتقد أن هناك سرًّا ما حول هذه اللوحة جعلني أفكر في شرائِها رغم قرار البيع في المزاد.

كان يزيد وأزيد أمامه بطريقة هستيرية، لا أشعر بما أفعله داخل المزاد، ولا أقدّر الثمن الذي أزايد به، كان الأمر بالنسبة لي محاولة

انتصار، ليس على رجل الأعمال الذي يتحداني، ولكن على يارا ورحيلها عني.

أفقتُ فجأة وشعرتُ أنني خرجتُ من هذا الكابوس، تركت المزاد وبِيعَت اللوحة في النهاية للرجل الذي تحداني، كان أعلى سعر ممكن الحصول عليه.

نظر إليّ في تحدٍّ واضح وكأنه انتصر وهو يضع السيجار وكأنه يمضغه بفمه.

حقّقَت اللوحة الملعونة أعلى ربح لي منذ سنوات، ونقلَت المتجر إلى مستوى أعلى، وأعطيتُ المكافأة لكل العمال ونجحَت أعمالي وزاد رصيد أموالي بمقدار ضخم.

هل الزمن يحاول أن يعوضني؟ هل هي دعوات العمال أن أبيع هذه اللوحة و أنتصر عليها؟ هل تخلّصتُ من لعنة يارا أخيرًا؟

فكرتُ في كل هذه الأمور، جاء عم جاد وهو يشعر بالفرحة العارمة لبيع اللوحة، وقال لي مبتسمًا:

- أيوة كده وشَّك نوّر وتركيزك رجع تاني كأن اللوحة دي كانت عاملة ليك عمل، إيه البقعة الخضراء اللي على قميصك دي؟

- فين دي؟

ظن الجميع أنني تخلّصتُ من اللوحة، بعتها بالفعل، ولكن لم أتخلص من لعنتها ولم أنتصر للأسف.

قبل المزاد بيومين أخذتُ اللوحة إلى القبو محاولًا تقليدها، حاولتُ استغلال موهبتي في الرسم وتخرجي من كلية الفنون الجميلة، ووضعت الألوان ورسمت تقليدًا للوحة كما المهووس، حاولتُ الاهتمام بالتفاصيل وأن يكون العمل نسخة طبق الأصل.

حاولتُ في المزاد أن أستعيد الأصل وأزيد السعر كي أحصل عليها مرة أخرى، ثم استسلمْتُ ورضيت باللوحة المقلدة في قبو منزلي، والتي ستبقى معي باقي الحياة.

لم أكن أرى هذه البقعة الصغيرة على قميصي من الألوان، والتي لم تخرج من القميص أبدًا.

حينما نظر الرجل إلى وجهي عرف أن هناك أمرًا ما و أنني ما زلتُ في أَسْرِ هذه اللوحة، تخلّصتُ من الأصل ولكن بقيت معي لوحة أخرى، وستلازمني اللعنة مدى الحياة.. لعنة المزاد ولعنة الهجر والفراق والمال.

«قلمك لا يكتبني"

ما زال المكان محتفظًا بتفاصيله، كل المقاعد ولون الجدران وكل تفصيلة أذكرها كأنني كنتُ هنا بالأمس رغم غيابي منذ سنوات طويلة!

«دار الأمل للمسنين» خرجت منه و أنا إحدى العاملات به، والآن أعود إليه كإحدى المقيمات فيه.

وكأن حبل الوحدة هو ما يربطني بالمكان، كنتُ وحيدة عندما أتيت أول مرة، والآن أعود وحيدة مرة أخرى بعد أن هجرتُ حياتي وملَلتُ الوحدة.

بالطبع لا يتذكرني أحد هنا، كل العاملات القُدَامَى قد تركوا المكان، وكل الجدد من الشابات والرجال من الأجيال الجديدة.

بعد فترة من إقامتي، وبعد أن جلستُ عددًا من الشهور في غرفتي في هذا الدار، بدأتُ أخرج وأكوّن أول صداقة لي بالصدفة مع الأستاذ «علاء».

لاحظتُ أنه يجلس وحيدًا دائمًا مثلي، ولا يبرح مكانه بجوار النافذة تقريبًا معظم اليوم.

كان الألم يعتصره، وكان كل ذكريات الماضي على وشك الانفجار في أي لحظة، كل المقيمين والمقيمات هنا لهم قصة، وبعض القصص قد تكون تتشكل من الدموع والحبر.

كان التعارف بيننا حذرًا في البداية، الثقة ليست هدية تمنحها أو مكافأة تعطيها لغيرِك، بل هي كخريطة الكنز التي تستأمن غيرك عليها، كنز حياتك وتجاربك.

بدأ الحديث بيننا هادئًا نسبيًّا في البداية، كل منا يحاول أن يحكي قصته تدريجيًّا، يحاول أن يزيح جبل الجليد من على صدره؛ فبعض الحكايات المؤلمة لا بُدّ أن تسحب من داخل أجسامنا وقلوبنا وعقولنا، تسحب بحقنة واحدة، ويتم توزيعها على الجميع كي نرتاح، حقنة المشاركة مع الآخرين.

بعد عدة شهور بدأنا نطمئن لبعضنا البعض، وتتقارب الأرواح تدريجيًّا، وبدأ الأمر يتخطى التحيات الرسمية إلى اقتراب نقطة البوح والصراحة.

الفضول يقتل كلّ من في داخل هذا المكان، الكل يريد أن يعرف سر الآخرين، ويريد أيضًا أن يبوح بحكايته، ويريد أن يعرف مَن هو الذي يستحق جائزة الوحدة وكأس الحزن والعبرات.

قال لي علاء في أحد الأيام وهو يكمل طعامه ويجلس أمامي:

- الوقت حان إننا نتكلم مع بعض وأحكيلك حكايتي.

- احكِيلي لو ده هيريّحَك.

- احكيلي حكايتِك الأول و أنا هَحكِيلِك بعدها.. حد جابِك هنا ولا جيتي لوحدك؟

- هَحكِيلَك كل حاجة من البداية، الوقت هنا طويل ومش بيمُرّ بسهولة، خلينا نتسلَّى شوية ونفضفض.

بدأتُ أتحدث معه و أقص له قصتي، وكيف عدت إلى هذا المكان مرة أخرى، الكل يظن أنني أتيتُ هنا لأول مرة، ولا أحد يعرف أن كثيرًا من سنوات عمري كان بين أرجاء هذا المكان.

بدأتُ هنا كمتدربة في البداية أحكي القصص لبعض كبار السن وأحاول أن أسلّيهم، بدأتُ التعرّف في فترة شبابي على الأستاذة «فاطمة»، كانت سيدة كبيرة في السن وليس لها أحد تقريبًا، وكانت ثروتها ضخمة للغاية.

كنتُ أساعدها دائمًا وألبّي طلباتها في الحال، وكانت تحبني كأنني ابنتها التي لم تنجبها، كانت دائمًا ما تُغدق عليّ بالمال والحنان وتعاملني أفضل معاملة، حتى أنها ساعدتني في عملي، و أقنعَت الإدارة بتثبيتي في الوظيفة بعد أن كنتُ مجرد متدرّبة فقط.

كنت أساعد الجميع، ولكني أساعد «فاطمة» بشكل زائد وملحوظ للجميع.

مرت السنوات وكانت تقترب من التسعين عامًا، وبدأ المرض ينهض في جسدها النحيل ويزيدُه فتورًا وألمًا.

في أواخر أيامها قالت لي وهي تبتسم:

- قرّبي يا سارة واسمعيني كويس.

اقتربتُ منها و أنا أمسح عرقها، وأحاول أن أكون بجوارها في سنواتها الأخيرة:

- أنا تحت أمرِك دايمًا.. ربنا يتم شفاكي على خير، أنا خلاص معرفش أعيش في المكان ده من غيرك.

- هَتعرَفي ولازم تكملي يا سارة.. دي حياتك ولازم تعيشيها ولازم تكوني سعيدة، أوصيكي بالسعادة يا سارة، و إنك ما تعمليش زيّي، خدي المفتاح ده وخدي العنوان اللي كتبتهولك في الظرف ده، في وسط الكراكيب اللي هناك هَتلَاقِي ظرف أبيض قديم.. اقرِيه كويس وحاولي تنفّذِي اللي فيه.

بعد مرور أشهر تُوفّيَت فاطمة، ولم أقترب من المكان إلا بعد مرور سنة.

قررتُ أن أنفّذَ وصيتها، وفتحت الورقة وعرفت العنوان وذهبت إلى هناك فورًا.

كان المكان عبارة عن قبو قديم في أسفل القصر الخاص بها، كانت ثريّة وفاحشة الثراء، حتى أن الكل تعجب أنها تركت كل أملاكها و أتت لدار مسنين في البداية.

وصلتُ إلى القبو كما كتبَت لي في الورقة، ووجدت الورقة البيضاء التي تقصدها وبدأتُ في قراءتها، وكان هذا هو محتوى الرسالة:

«أنا دلوقتي بين إيد ربنا يا سارة.. كتبتِلِك أملاك باسمك؛ لأنك كنتي صديقتي الوحيدة وكنتي مخلصة دايمًا ليّا، أنا عشت عمري كله وحيدة في المكان ده، عارفة إنك بعد ما شوفتي القصر وكل الفخامة دي استغربتي أكتر وبتسألي نفسِك أنا ليه جيت دار المسنين و أنا كنت عايشة في العز ده كله؟!

عايزة أقولِّك إن الوحدة أصعب حاجة، وعايزة أوصِّيكي ما تعمليش زيّي، أنا سيبتِلِك أملاك تعيّشِك مرتاحة طول حياتك.

ماتسِيبِيش الصعوبات والظروف اللي بينك وبين حبيبك «صلاح» اللي كنتي دايمًا بتحكيلي عنه إنها تفرّقِك عنه، قرّبي منه وكوّني أسرة

معاه وكوني السند ليه، انتي قولتيلي إنه بيحبّك لكن الظروف المادية صعبة وممكن تهدم علاقتكم.

هاقولّك تاني «ما تعمليش زيّي أنا.. قرّبي منه وما تسبيهوش وعيشِي حياتك سعيدة"

صديقتك / فاطمة

أصبحَت حالتي مختلفة وأصبحتُ ميسورة مادّيًا بعد أن تركَت لي فاطمة الكثير من الأموال، وكتبَت فاطمة في وصيتها أن يتم توزيع باقي أملاكها لجمعيات خيرية لمساعدة المحتاجين، وتبرّعَت بجزء كبير أيضًا لدار المسنين لتطويره.

قررتُ أن أتحدّى كل الصعوبات، و أقترب من صلاح أكثر، صلاح هو قصة حبي التي تحدَّتها الظروف والعقبات على مدار سنوات بسبب الظروف الصعبة وظروف البلد الاقتصادية.

تمسّكتُ بكلمتها وأصبحَت منهجًا لحياتي «لا تفعلي مثلي«، قررتُ أن ألتزم بوصيتها وأن أعيش و أقوم بتكوين أسرة، و أبتعد عن الوحدة التي نهشَت في عظامها وأسقطت دموعها.

تزوجتُ بالفعل من صلاح وعِشنا سعداء لأول عامين تقريبًا، ثم بدأ في التغيّر تدريجيًّا، أصبح عصبيًّا بشكل غريب وأصبح يعاملني بشكل قاسٍ، ويشعر بأنني مَن أنجح هذه العلاقة بسبب الأموال التي تركتها لي فاطمة، وكان كل هذا يضايقه ويشعر أن هذه الأموال تنتَقِص من رجولته.

بدأ الحب يفتُر بيننا، الحب الذي كان كما الربيع بداية شبابي تساقطَت أوراقه وحل خريفه الدامي، وبدأ كل شيء في الانهيار!

لأول مرة يقترب مني ويصفعني، ثم صالحني مرة أخرى، ونشبَت بيننا عدة مشاجرات ثم انفصلنا في النهاية.

كانت سنواتي الأخيرة معه سيئة للغاية، كان سيء المعاملة وقاسيًا بشكل لم أعهده معه في فترة الوعود والأشعاروالحب.

كل شيء يتغير تدريجيًّا، حتى الحب! الحب لا يدوم كما كانت تتخيّل فاطمة، لن تبقى السعادة ولن تدُوم كما كنتِ تتوقعين يا فاطمة.

الآن أقول لنفسي «يا ليتني كنت مثلك يا فاطمة«، قُلتِ لي في وصيتك «لا تكوني مثلي»، بل يا ليتني كنتُ وحيدة وعشتُ وأنا وحيدة بدلًا من الذل والإهانة التي عشتُها في حياتي.

السعادة ليست وصفة سهلة، وليست وصفة سحرية، السعادة كيمياء غريبة خاصة بكل شخص، وكل منّا له معادلته الخاصة والفريدة، ولا ينطبق الشيء على الكل.

فاطمة نصحتني بالتخلص من الوحدة، وأن أعيش مع من أحب، ولكنها لم تعش هذه التجربة، كان كل ما تعرفه هي الأفلام الرومانسية وقصص الحب وعلاقة حبها غير المكتملة وهي صغيرة؛ فظنَّت أن الحب هو كل شيء.

ظنَّت فاطمة أن الحب هو الحب الوحيد السحري لكل البشر، وأنه الخلاص لنا جميعًا، أوصَتني كأنما تُوصي نفسها، ولكن ما قد ينطبق عليها لا ينطبق على حالتي.. يا ليتني عشتُ وحيدة.

وبالفعل قررتُ أن أعيش وحيدة بقية عمري بعد تجربتي القاسية مع صلاح، وقررتُ أن أعود في مرحلة عجزي إلى دار المسنين التي عمِلتُ فيها في سنوات شبابي.

تأثّر علاء بعد سماع قصتي بتفاصيلها، وبدأ في البوح لي بملامح من حياته، وكيف أن له قصة مشابهة لي.

بدأ في حديثه المسترسل عن طفولته السعيدة، وكيف عاش أجمل أيام عمره وهو طفل صغير، ولكن منذ وصوله لسن المراهقة كان والده يحاول أن يشكله كقطعة الخزف.

أخطر شيء نفعله لأولادنا أن نحاول أن نشكلهم حسب أهوائنا وميولنا، ثم نسميها «مصلحة الطفل».

الكلّ يظن أنه يعرف مصلحة أولاده، ولكن في الحقيقة هي نوع من الأنانية ومحاولة لفرض السيطرة ورسم الحدود؛ مما يزرع داخل الأطفال الخوف تدريجيًّا، ويفقدون معنى الحرية وتبدأ العلاقة في الانهيار مع الأب.

كانت تدريبات التنس بأمرٍ من الأب، تدخّلَ في كل شيء في حياة علاء، كل صغيرة وكبيرة، كان يريد أن يخلُقَ نسخة مشابهة لكل أحلامِه التي لم تتحقق.

بعض الآباء يظنُّون أن الأبناء حقل تجاربهم الخاصة، نهر خاص يملئونه بزوارقهم الورقية، وبداخل كل ورقة حلم لم يحققوه، إلى أن ينهار الابن ويقذفَ النهر كله بالحجارة ويدمر كلّ الأوراق.

قال علاء إن وصوله لسن العشرين كان بمثابة النقمة، كان التدخل في حياته قد وصل منتهاه، وبدأ أبوه في البحث عن العروسة المناسبة، وأمره أن يُنجِب العديد من الأولاد، كان يظن أنّ سر السعادة في كثرة الأولاد والبنات.

وبالفعل عاش سنوات في البداية من السعادة، ولكن الحلم لم يكتمل، وبدأ الأولاد في السفر للعمل وتركوه وحيدًا بعد وفاة زوجته.

باقي الأولاد الذين تبقوا معه طمعوا في أمواله وتغيّروا تدريجيًّا، بل ونصحوه أن يمكث في دار المسنين حتى يموت؛ لأن ليس لديهم وقت له تمامًا.

لم يزوروه في هذا المكان ولو مرة واحدة، وهذا ما يؤلمه ويحزنه دائمًا.

قال لي في حسرة بعد أن قصّ قصّته:

- عارفة أنا نفسي في إيه؟ نفسي أقف و أقول بعلو صوتي قدام قبر أبويا «اتبسطت دلوقتي؟ عملت اللي انت عايزه، بقيت نسخة لحياته ولعبت التنس و اتجوّزت بدري وجبت العيال، أنا عمري ما حسيت بالفرحة.. ليه عملت فيّا كده؟ ليه ماسِبتِنِيش أعيش وأحب و أتجوّز اللي أنا عايزها؟ قولتلي العزوة حلوة والعيال هيسنِدُوك، مين سندني فيهم؟ مش كانت الوِحدة أحسن؟ على الأقل كنت هَشْفِق على نفسي بدل ما أنا عايش والاسم عندي ولاد، لكن الحقيقة إني وحيد وعشت عمري كله وحيد من غير حب حقيقي".

كان الألم يعتصر قلبه مثلي تمامًا، عشنا بتجارب ونصائح الآخرين، ولكن لم نحصل على السعادة ولو للحظة في عمرنا.

نصحونا بالزواج والحب وتكوين الأسرة، ولم نحصل سوى على مقعد في دار المسنين، فقدوا السعادة؛ فظنوا أن نصائحهم ستغيرنا وتغير حياتنا، ولكن لكل منا كتاب وأوراق وسطور مختلفة.

لا تنصح الآخرين بأي شيء؛ فقلمك لن يكتبهم ولن يشكّلهم، ولن يمنحهم السطور السعيدة والنهاية الموعودة التي تتخيّلها في الأفلام والروايات.

الحياة مختلفة بكل تفاصيلها عن الروايات ونهايات الأفلام، يا ليتني أقف أمام قبر فاطمة و أقول لها أيضًا:

"كنتي فاكرة إن رسالتك هَتدِّيني السعادة، لكن كتابي مختلف.. سطور وصفحات حياتي مختلفة، كل واحد فينا مختلف زي البصمة ومالوش شبيه.

قلمك و انتي بتكتبيلي الرسالة والوصية كنتي فاكرَة إنه هَيغيّر حياتي، لكن دلوقتي بقولّك «قلمك مش هَيكْتِبني»، قلمك ماغيّرش حياتي.. سيبوا كل واحد يعيش زي ما هو عايز، مفيش وصفة ثابتة للسعادة، ومَفِيش حد بيعِيش حياة حد!

«ماكينة سحق الأحلام»

لم أعرف أبدًا سبب المشكلات الدائمة بيني وبين زوجتي، تزوجنا منذ حوالي عشرة أعوام، وكنا سعداء في بداية فترة الزواج، ولكن كل شيء يتغير.

هل السعادة الدائمة وهمٌ أم أن حياتي أصابها النحس وأصبحَت ذرات السعادة فيها هشيمًا تذروه الرياح؟

رغم أن حالتي المادية جيدة ولدينا أطفال، كنا دائمًا ما نتمناهم، ولكن العلاقة كانت تفتُرُ تدريجيًّا.

عندما كنت أجلس مع أصدقائي وكنا نتشارك معًا الحديث عن الزواج والأسرة كانوا دائمًا ما يقولون لي:

- هو ده الجوازيا صالح.. انت فاكر إيه؟! يوم حلو ويوم مُرّ، مَفيش حاجة دايمة للأبد غيروجه الله.

كنت أشعر بالطمأنينة أحيانًا من الحديث معهم، أو أُحاوِل أن أطمَئنّ نفسي قليلًا، ثم أشعر بالخطر وأن حياتي الزوجية على وشك انهيار كامل.

ذهبتُ في إحدى الأيام إلى ماكينة الصراف الآلي بجوار المنزل، ولكنها كانت معطلة، كنتُ أريد أن أسحب راتبي، ولكن كل الماكينات المجاورة لم تقبَل البطاقة الخاصة بي، ولا أعرف السبب بعد!

ذهبتُ إلى أبعد نقطة و أبعد ماكينة لعلها تقبل البطاقة وأستطيع سحب الأموال، وبالفعل وبعد عناء كانت سليمة وبدأتُ في الإجراءات.

عندما وضعتُ البطاقة لاحظْتُ أشياء غريبة لم أكن أجدها قبل ذلك، وجدتُ كلمات جديدة تمت إضافتها، وقلتُ لنفسي ربما قاموا بتحديث الخطوات في النظام الخاص بهِم.

بعد أن اخترتُ اللغة العربية وجدتُ الماكينة تضيء باللون الأحمر وتصدر أصوات مفزعة، نظرتُ حولي ولكن لا أحد يحيط بي في هذا المكان النائي البعيد، ولا أحد يسعفني.

انخفض الصوت تدريجيًّا، ثم وجدت الاختيارات كالتالي:

سحب / إيداع / كشف حساب / حياة أخرى!

حاولتُ أن أنظر جيّدًا و أتأكد مما أراه، هل فعلًا وضعوا خانة جديدة لحياة أخرى؟ ما هذا الهراء والعبث؟! هل هذا أحد المقالب التليفزيونية؟!

أخرجتُ البطاقة ثم وضعتها مرة أخرى، وسمعت نفس الصوت المفزع، ثم وجدت نفس الاختيارات، حاولتُ تجاهلها في البداية، ولكن فضولي قتلني لمحاولة فهم طبيعة الحياة الأخرى التي يتحدّثون عنها.

ربما لأن حياتي ليسَت على ما يرام، ولأني أسعى لتغيير أي شيء حتى ولو عن طريق ماكِينة غريبة وغامضة.

ضغطتُ على الاختيار «حياة أخرى»، ووجدتُ اختيارَين أحدهما يقول «وحدة دائمة وأموال"، والثاني يقول «حب و إفلاس«!

ما الذي يحدث؟! هل هذا الكلام حقيقي أم مجرّد وهم في رأسي؟ كيف ستمنحني هذه الماكينة الملعونة هذه الأشياء؟ هل تم اختراق هذا البنك أم ما الذي يحدث وأراه أمام عيني ولا أكاد أصدق؟!

حاولتُ الاتصال فورًا بأرقام خدمة العملاء بلا طائل.. جميع الخطوط مشغولة، ربما جميع العملاء يحاولون الاتصال لفهم طبيعة ما يحدث في ماكينات البنك وهذه الاختيارات الملعونة.

فكّرتُ كثيرًا قبل أن أغادر المكان.. هل أجرّب الضغط على أي اختيار منهما؟ هل الوحدة مع المال أفضل أم الحب مع الإفلاس؟

من العجيب أن الماكينة تمنح فترة اختبار كما هو مكتوب.. كل اختيار ينبثق منه نافذة «تجربة» و«تأكيد«.

حاولتُ أن أقاوم رغبتي، ولكن قلتُ لنفسي «ماذا سأخسر؟ سأجرب فقط".. أريد أن أعرف معنى الوحدة والمال الوفير، هل ستمنحني الوحدة السعادة؟

ضغطتُ على «تجربة«، ثم سحبتُ البطاقة وعدتُ إلى منزلي، ولكن لم أجد المكان كما هو! المفتاح لا يعمل ولا يفتح الباب.

فتح أحد الأشخاص الباب فجأة وهو يعتقد أنّني لص، وفهمتُ أن كل شيء تبدّل، حتى بطاقة هويتي قد اختفَت من محفظتي.

حاولتُ الاتصال بأصدقائي ولم أجد أرقامهم على هاتفي.. لقد جعلَتْني الماكينة وحيدًا بشكل كامل وبشكل لا يُصدّق.

ذهبتُ مسرعًا إلى الماكينة مرة أخرى، ووجدتُ خيارات سحب الأموال متاحة بلا حدود، أغرب جملة من الممكن أن تشاهدها «رصيدك الآن: بلا حدود»!

سحبتُ ما يحلو لي من الأموال، وسهرتُ في عدد من الأماكن، ولكن ليس لي أصدقاء ولا زوجة ولا أبناء، حاولتُ أن أتعرّف على أصدقاء جدد، ولكن كأنني غير مرئي بالنسبة لهم، لا أحد يريدني ولا فتاة تريد أن تعرِفَني!

هل هذا من شروط الاتفاق بيني وبين هذه الماكينة؟

أموال طائلة ولكن وحدة أبدية بلا قدرة على تغييرها.. بلا قدرة على الحصول على أصدقاء جدد، الكل يتجاهلني الآن رغم كل هذه الأموال!

حصلتُ على حقائب بأرقام فلكية من الأموال، ولكن ما زلتُ وحيدًا ولا أعرف ماذا أفعل، ربما ليس هذا الاختيار ما سيمنحني السعادة.. ربما أختار «الحب مع الإفلاس»!

كل هذه الأموال لم تسعدني مع شعوري العارم والقويّ بالوحدة، الوحدة تُعَجّل بهلاكي وشيبِي، ولا أستطيع الاقتراب من أي شخص يحيط بي.

ذهبتُ سريعًا إلى البنك ووضعت بطاقتي.. الشيء الوحيد المتبقي في محفظتي بعد أن اختفت بطاقتي الشخصية بشكل مريب، واختفت زوجتي وكل أصدقائي وكأنني شخص بلا هوية وبلا تاريخ ميلاد.

قلتُ لنفسي ربما يكون الاختيار الثاني هو طريق السعادة.. ضغطتُ على «حب و إفلاس"، ثم أخرجتُ البطاقة وعدتُ إلى منزلي.

كان كل ما يحدث في المنزل غريبًا جدًا، زوجتي تحبني أكثر وتهتم بي بشكل لافت، حتى أصدقائي يطمئنون عليّ باستمرار كما لم أعهدهم من قبل.

أخيرًا عرفتُ طريق السعادة.. الحب والاهتمام، عشتُ أيامًا سعيدة لأول مرة مع زوجتي منذ فترة طويلة، بدأ رصيدي يتآكل تدريجيًّا حتى أصبح رصيدي «صفر»، بل أصبحتُ مديونًا الآن.

ولكن الكل يحبني.. سينقذونني مما أنا فيه، ذهبت إلى أصدقائي ولم يقف معي أحد في لحظات إفلاسي، رغم أنهم يعاملونني بكل حب واهتمام!

بدأ الحب يفترُ بيني وبين زوجتي، وبدأت المشاكل في العودة مرة أخرى، هل أخلَت الماكينة ببنُود الاتفاقية؟ ولكن مِن حسن حظي أنها فترة اختبار، وسأنهيها وأعود لحياتي الطبيعية.

ذهبت إلى البنك ووضعتُ البطاقة ولم أجد الاختيارات متاحة.. ما الذي يحدث؟! الاختيارات العادية فقط هي المتاحة.. هل خدعتني الماكينة!

اتصلتُ برقم خدمة العملاء وأخيرًا حصلتُ على رد، ردّ عليّ صوت غريب لفتاة، وقالت لي وهي تهمس:

– عارفة هتقول إيه؟ مش هَقْدَر أساعدك.. النظام ده كلُّه كان فترة تجريبية.

قلت في غضب:

- يعني إيه؟! بتجرّبوه فيّا؟ طيب عايز أسحب الاختيار ده وأرجع لحياتي الطبيعية، رجّعوني حتى للاختيار التاني «وحدة وفلوس".

- للأسف يا فندم مش هَيِنفَع.. انت جرَّبْت وعليك تحمّل المسؤولية.

- يعني إيه الكلام ده؟! لو سمحتِي ادِّيني المدير بتاعِك، أنا عايز أعمل شكوى.

- بص.. كل الكلام ده مش هَيفِيدَك.. قدامك فرصة أخيرة ممكن تنفَعَك.

- إيه هي الفرصة دي؟ هَتنصُبُوا عليّا تاني؟

- احنا ماضحِكْناش عليك أبدًا.. انت اللي اختَرت بإيدك مصيرك.

- أنا افتكَرت إنها فترة تجريبية، وممكن أرجع تاني لحياتي!

- للأسف الناس كلها فاكرة إنها ممكن تجرب أي حاجة عشان تغير حياتها، كل حاجة بالنسبة لكم فترات اختبار، محدش راضي باللي بين إيديه.

- انتي هَتِتفَلْسِفي كمان؟! دمرتي حياتي وفلّستُوني، وكمان بتتفَلسِفِي في المكالمة؟

- قُدّامك فرصة أخيرة، بس فكر كويس فيها.

- إيه هي الفرصة دي؟

- ترجع لفترة الجامعة، وقُدّامك كل الاختيارات متاحة من جديد!

- أرجع لفترة الجامعة؟! و أفقد كل حاجة؟!

- ما انت فقَدت كل حاجة، هَتِخسَر إيه؟

- بس انتوا قلتولي في الاختيار «حب و إفلاس"، فين بقى الحب؟ كلّه بدأ يتغيّر، حتى أصحابي سابوني!

- راجع الكلمة تاني «حب«، بس ماقُولناش «حب دائم«.

- آآآه بتلعبوا بالكلمات يعني يا نصابين.

- احنا مش نصابين، انت اللي طماع.

- يعني محدش هيساعدني وهَفقِد كل الحب وكمان هَفلِّس؟

- بالظبط كده، وده اختيار مش هَتِعرَف ترجع فيه؛ لأننا غيّرنا النظام كله.

فكرتُ كثيرًا في هذا العرض.. هل سأعود بالزمن و أفقد كل ما حققته في حياتي؟ سأعود لأيام الدراسة مرة أخرى وأهرب من إفلاس وهجر أصدقائي وزوجتي وتخلِّيهم عني في شدتي؟

عدتُ بالفعل للماضي.. قبلتُ العرض، وفي الجامعة وفي أول يوم لي وجدتُ فتاة تنظر لي من بعيد هي وأصدقائها.

إنهم مَن كانوا أصدقائي في حياتي السابقة، ولكن أصغر سنًّا، وهذه زوجتي المستقبلية وهي تبتسم ومشرقة كما لم أعهدها من فترة في منزلنا.

تقرّبتُ منهم للتعرف عليهم ومحاولة بدء حياتي من جديد معهم، كنتُ أقترب بخطوات سريعة، وهم بالطبع لا يعرفونني الآن.. كل شيء يعاد من جديد.

فجأة صدمني أحدهم.. رجل يرتدي ملابس غريبة، ويهمس في أذني «اختار صح المرة دي.. عشان ما تندمش».

عندما بحثتُ عنه لم أجده، اختفَى فجأة بشكل مرعب، ولكنه ذكّرنِي بضرورة الاختيار بشكل سليم، نظرتُ للفتاة من بعيد ثم ابتعدت! ربما تغيّر هذه اللحظة كل شيء في حياتي في المستقبل.. سأتعرّف على أصدقاء آخرين.

وما أصابني بالرعب حقًّا في وسط المحاضرة الأولى لي في الجامعة.. هذه المعيدة الشابة التي يشبه صوتها صوت موظفة خدمة العملاء التي حدّثَتني في الهاتف!

ونظرت لي في وسط المحاضرة، وقالت بشكل غريب:

– كل حاجة بنختارها وكل قرار بيغيّر حياتنا كلها.. الاختيار لحظة والمصير عمر كامل، ولا إيه يا صالح ؟!

ما هذا الجنون؟! تنظر لي في تحدٍّ واضح.. إنها هي! هل ستتابعني لبقية حياتي؟ مَن هؤلاء وهل هذا البنك حقيقي؟ لم أجد إجابة أبدًا، ولكن سأحاول أن أختار بشكل صحيح فيما تبقَّى من عمري!

«حقنة الذكريات السعيدة"

عندما سمعتُ عن هذا الاختراع الجديد وهذه الحقنة الغريبة شعرتُ بسعادة غامرة، أخيرًا سأشعر بالسعادة عندما أسترجع ذكرياتي بدلًا من الحزن والأسى والشعور بالألم عندما أتذكر الحادث الذي أودَى بحياة أبي وأمي.

تغيرَت حياتي منذ وفاتهما، وصرتُ أكثر انقطاعًا عن أهلي وأصدقائي وحياتي بالكامل، لم أشعر بطعم السعادة الحقيقية منذ فترة طويلة، وكلما تذكرتهما واحتضنتُ الذكريات معهما كلما شعرتُ بالفرحة، ولكنها ممزوجة بقسوة ومرارة الفراق.

سمعتُ من أحد الأصدقاء عن أحد المراكز العلاجية الذي يعدُ الو افدِين إليه بالسعادة، حقنة صغيرة ربما تغيّر حياتي إلى الأبد، ربما يخاف البعض من التجارب الجديدة، ولكني لم أعُد أخشى أي شيء، أريدُ أن أعيش التجربة الجديدة وأهرب بها إلى عالم آخر، حتى ولو كانت التجربة هي تجربة انتقال إلى كوكب آخر؛ فربما أرحّب بها بعد أن ضاقت بي الأرض وضاق قلبي بضجيج وصخب وصهيل حزني.

الحزن هو ما يغيّرُنا ويدفعنا إلى خوض التجارب الجديدة الخطيرة، يدفعُنا إلى رحلة البحث عن مساحات مأهولة جديدة وأشجار أمل جديدة في وسط الخريف والأوراق المتساقطة، يدفعُنا للبحث عن انتصار جديدٍ وسط رايات الهزيمة.

ذهبتُ مع صديقي إلى هذا المركز الغريب، وسألته في حيرة:

– الحقنة دي هَخُدها مرة واحدة؟ تعْرَف حد جرَّبها يعني وجابت نتيجة؟

قال لي:

- أيوة، وكل اللي جربوها بيأكّدوا إنها فعّالة وفعلًا بيفتكروا حاجات من الماضي وكلها سعيد،ة وحاجات أول مرة يفتكروها، بس مش عارف هي مرة واحدة ولا إيه؟

- عمومًا أنا مش خسران حاجة، المهم أجرب وأشوف بنفسي.

كان شعار المركز عبارة عن حقنة كبيرة وكأنها وسادة يسند عليها أحد الرجال رأسه ويشعر بالسعادة الغامرة، وكأنه تعاطى أحد العقاقير المهلوسَة، ربّما لا تُشعِرُك الصورة بالطمأنينة، ولكنها تُوحِي بالهروب إلى عالم جديد.

عندما قابلتُ الطبيب المتخصص ابتسم لي، وبدأ في إلقاء التحية:

- أهلًا بيك مستر أشرف، يا رب تكون بخير.

- أهلًا بحضرتك.

- يا ترى سمِعت عننا من الأصدقاء والعائلة ولا من التليفزيون؟

- الحقيقة سمِعت عنكم من صديقي، لكن إعلاناتكم مغرّقَة التليفزيون، ودي في حد ذاتها حاجة مش مُطَمئِنة قوي، لكن قولت أجرّب برضه.

قهقه الطبيب بصوت أجش، وقال لي:

- أنا عارف إن القنوات اللي بنعْرِض عليها الإعلانات ممكن تكون مش قنوات كبيرة، لكن ده عشان الأسعار الفلَكِيّة اللي بتطلبها القنوات دي،

والحملة الإعلانية بتكون مكلّفة جدًّا، لكن أوعِدَك بتجربة عمرك ما هَتِنْساها.

- أتمنى ذلك.

- في البداية حضرتَك هتِمضِي العقد ده عشان ده بيثْبِت إنك جيت بمحض إرادتك وموافق على التجربة.

- هي تجربة ولا علاج ولا إيه بالظبط؟

شعر هذا الرجل بالارتباك قليلًا من سؤالي، وقال:

– هو علاج، لكن برضه بنسميه تجربة.

أعرف جيّدًا فوضى القنوات الفضائية التي تسمى «تحت السلم»، و أفهم أن معظم ما يتم الإعلان عنه هو في حقيقة الأمر مجرد أوهام ومواصفات خادعة، فهل تكون هذه التجربة منهم أم هي مجرّبة وحقيقية؟ نعم هي مغامرة كبيرة أغامر بحياتي فيها، ولكن لا سبيل آخر للهروب.

سألتُ عن تفاصيل العلاج، وقلت:

- هل الحقنة دي مرة واحدة ولا هَخُدها كل فترة؟ وهَتجِيب نتيجة بعد وقت قَدّ إيه؟

- النتيجة بتظهر بعد عشرين يوم تقريبًا، وهَتِبدَأ تلاحظ وتفتكر ذكريات سعيدة تفتح نِفسَك على الدنيا، حاجات كنت ناسيها وحصلِت من زمن بعيد، والحقنة بتكون مرة واحدة بس.

- تمام، أنا هَمضِي العقد وهجَرَّب وأمري لله.

بعد مرور الأيام استيقظتُ فجأة بعد أن تذكّرتُ أحد المو اقف و أنا ألعب مع أبي في فترة طفولتي، كان يقوم بمساعدتي على الأرجوحة و أنا أضحك بقوة وبسعادة طفولية.

بدأَت الحقنة في العمل، بدأت السعادة تسري في أوصالي، وشعرتُ أني أكثر قبولًا للحياة و أكثر تحمّلًا للوحدة.

ولكي أجعل السعادة مضاعفة بدأت في كتابةِ يومياتي وكتابة كل الذكريات الغريبة التي لم أكن أذكرها، وكأنها جاءَت من أعمق أعماقي، وتفاجأتُ بها وكأنها لشخص آخر وليست لي.

وبعد مرور أكثر من شهر على مفعول الحقنة بدأتُ أمسِك دفتر مذكر اتي و أقرأ صفحاته بعناية، وبدأ الشكّ يلعبُ بعقلي.

هل هذه الذكريات لي حقًّا؟ لماذا لم أتذكرها قبل اليوم أبدًا؟ لماذا أشعر بأن هذه الذكريات تخصُّ شخصًا آخر وكأنها ماضِي شخص آخر؟

اتصلتُ تليفونيًّا بصديقي عماد، وقلت له:

– عماد، أنا عايز أقابلَك ضروري دلوقتي.

بعد أن قابلته في أحد المطاعم في ليلة باردة قلت له في شك:

- عماد، انت قولتلي إن فيه ناس جربوا الحقنة دي وجابت مفعول.. ممكن توصَّلْني بحدّ منهم لو سمحت؟

- ليه يا أشرف؟ خير إيه اللي حصل؟! هي مفعولها راح ولا إيه؟ ده انتَ كنت بتشكر فيها جدًّا من كام يوم.

- لا مفعولها ماراحش، ولكن الغريب إن فيه حاجات بفتِكْرها وكأنها مش ليّا أنا.. الذكريات دي ماتخصّنِيش.

- ذكريات سعيدة يعني ولا حزينة؟

- كل الذكريات سعيدة زي ما المركز وعدني، ولكن حاسِس إنها أوهام مزروعة مش ذكريات، الحاجات دي ما حصَلِتش ليّا زمان أصلًا.

اتصل عماد تليفونيًّا بأحد أصدقائه ممن جربوا هذه الحقنة ليقابلنا بعد يومين؛ لنعرف هل هذه الأعراض خاصة بي فقط أم هي حالة عامة لكل من تعاطوا هذا العلاج المزعوم؟

هل هي مجرد وهم أم وصفة للسعادة؟ وهل هذا الطبيب مجرّد نصاب يحتال على المواطنين من خلال القنوات الرخيصة سيئة السمعة؟

بعد أن قابلتُ صديق عماد قال لي في حسرة:

– أنا كمان بشكّ إن دي ذكرياتي.. فيه حاجات بفتكرها وبتسم وبحس بفرحة كبيرة، لكن في النهاية بحس بالحزن لأني عارف إنها ما حصلِتْش ليّا في حياتي أبدًا، الذكريات دي تخص عقل حد تاني مش أنا!

ذهبنا إلى الطبيب لمواجهته بهذه الحقائق التي اكتشفناها، ولكنه قابلنا بكل برود وقال:

- يمكن ماقرِيتش العقد كويس.. أنا قولتلَك شوف العقد و افحَصُه و انت استعجلت وقولت أجرب الحقنة وخلاص، مشكلة معظم اللي بييجُوا عندي إنهم مش بيقرُوا العقد يعرفوا حقُوقهم أو الثغرات الموجودة.

- انت نصاب و أنا مش هَسِيبَك، وهَرْفَع عليك قضية أنا وكل الضحايا التانيين.

- أنا مش فاهم انت زعلان ليه؟ مش انت سعيد؟ مش أنا حقّقتلَك السعادة؟ مالَك بقى هي ذكرياتك ولا ذكريات حد تاني ولا مجرد أوهام؟

- وده يفرق بإيه يا نصاب عن شوية مخدرات؟

- انت بتقارن اكتشافي بالمخدرات؟ أنا العلاج بتاعي بيدِّيك سعادة دائمة بحقنة واحدة، مش إدمان ولا بيضيع عقلك، لكن انت مُصِرّ إنك تقتل سعادتَك بنفسك.

- أنا مش بقتل سعادتي؛ لأنها أصلًا مش سعادتي يا دجّال يا حرامي.

- طيب عمومًا طالما الحوار وصل بينا لكده.. خُد حقَّك بالقانون وشوف المحامي اللي يعجبك، المقابلة انتهت.. اتفضل برَّه أنا مشغول.

بدأتُ في جمع أكبر عدد من الضحايا.. ضحايا هذه الحقنة الوهمية وهذا المدّعِي الأفَّاق الذي يدَّعِي أنه طبيب.

كان هناك نقطة في العقد بالفعل تؤكد أني أوافق على كل ما ينتج عن هذه الحقنة، سواء كانت ذكرياتي أو ذكريات أشخاص آخرين!

لكن من الغريب أن الكثيرِين ممن ذهبت إليهم رفضوا رفع قضية على الطبيب، كانوا يعرفونَ بالفعل أنها ليسَت ذكرياتهم، ولكنها تشعرهم بالسعادة وتشعرُهم بالسّكِينة وبالقدرة على أن يتجاوزُوا محنَتَهم.

والبعض الآخر لم يكن يعرف هذه المعلومة، وكان يظنّ أنها كلها ذكرياته المدفونة داخله ولم يتذكَّرْها من قبل.

بدأتُ في مشوار المحاكم والقضايا والحزن والإحباط، كنتُ أتذكّر في كل يوم بعض الذكريات الخاصة بي وبعض الذكريات الغريبة.

ولكن الفرق أنها كانت تشعرني بالسعادة، ولكن الآن أفكّر بها بحرص وأشعر بالاكتئاب؛ لأنها مجرّد أوهام تمتلئ بها رأسي.

شعرتُ بالمرض والقلق، وأُصِبتُ بجلطة في القلب ودخلتُ في مراحل العلاج، وجلستُ في المنزل لفترة لا أستطيع الحركة، وكان بعض أصدقائي يحرصون على زيارتي.

جاء عماد لزيارتي هو الآخر، وجلس معي وقال وهو يشعر بالحزن لما وصلت له الأمور:

- ليه يا أشرف عملت كده في نفسك؟

- أنا ماعملتش حاجة.. الراجل ده هو اللي نصّاب ودمَّر حياتي.

- لكن انت شايف إن الناس اللي كبّرِت دماغها سعيدة في حياتها، وعارفين كويس إنها مش ذكرياتهم، ومع ذلك عايشين سعداء.

- ازَّاي أعيش بسعادة مع أوهام؟ مع حاجات ماتخصِّنِيش ولا عمرها حصلت في حياتي؟

- وهو الو اقع يعني والذكريات الحقيقية وهبِتَك السعادة؟ طب ما انت جرَّبت كل ده وعشت في حزن وحسرة، فيها إيه لو كنت كمِّلْت وتجاهَلْت الموضوع وعشت في وهم السعادة بدل و اقع الحزن؟

بعد فترة من العلاج عدتُ لحياتي.. وقفت على قدمي مرة أخرى وقمت بإلغاء الإجراءات القضائية، وتنازلت عن القضايا المرفوعة على الطبيب النصاب.

بدأتُ أتعايش مع أوهامي مثل الآخرين ولا أبحث عن الحقيقة، بدأتُ أُوهِم نفسي أن كل هذه الذكريات لي، و أني قد عشت هذه التجارب من قبل.

وتعاملتُ مع الحقنة كأنها مخدرات دائمة، وكانت الابتسامة لا تفارقني بعد ذلك، وبعد أن استَسلمتُ وتعايشْتُ مع تلك الحالة.

حينما بحثتُ عن الحقيقة وعن طبيعة الحقنة والعلاج أصابني المرض.. وحينما تجاهلت الحقيقة وعشتُ في وهمي الخاص بكل إرادتي أصبحتُ سعيدًا كغيري من المتجاهلين والراضِين بطبيعَة الأمور.

هل هذه طبيعة الحياة؟ هل لا بُدّ أن نقْبَل بعض الأوهام ونتقبل بعض الحيل والألاعيب بنفس راضية كي تمر بنا أيامنا في هدوء وسلام؟

وهل يسمّى هذا هروبًا أم رضا وتعايش؟ وهل البحث عن الحقيقة في كل شيء قد يضُرّ أكثر مما ينفع؟

اخترتُ الهروب والتعايش كما نصحني صديقي، وكما قال في جملته «وهم السعادة بدلًا من و اقع الحزن».

أشعر بالضعف والاستسلام للأمر الو اقع، ولكني أبتسِمُ وأعبُر و أتجاوَز.

لا أعرف هل هذا هو الطريق الصحيح أم لا؟ ولكن هذه الحياة تحتاج لتقبُّل بعض الأوهام.

تعلّمتُ أن أتقبّل أوهامي.. وعرفتُ أنه إذا فتَحنا أعيننا بشكل كامل أصابتنا الحقائق بالعمى!

يعد هذا العمل الإصدار العاشر للكاتب وصدر له سابقا :

- أخر أحلام الدانتيل نصوص نثرية

دار الربيع

- الضفادع لا تشرب الماريجوانا كتاب ساخر

دار الحلم للنشر والتوزيع

- خمارة الشيخ مرسي مجموعة قصصية

دار الحلم للنشر والتوزيع

- "المسخ يعشق مريم" رواية

دار الحلم للنشر والتوزيع

- بطريق سينجل لا يأكل السوشي كتاب ساخر

دار الحلم للنشر والتوزيع

- موسم الهجرة إلى الياسمين مجموعة قصصية

دار لوغاريتم للنشر والتوزيع

- المانترا " ما بعد رحيل سمية" رواية

دارزين للنشروالتوزيع

- جوازفوبيا كتاب ساخر

دارزين للنشروالتوزيع

- "هكذا تحدث كيوبيد " نصوص نثرية

دارزين للنشروالتوزيع